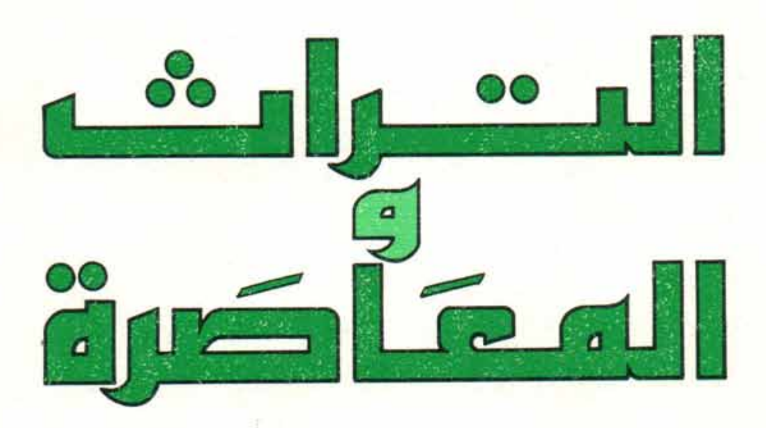
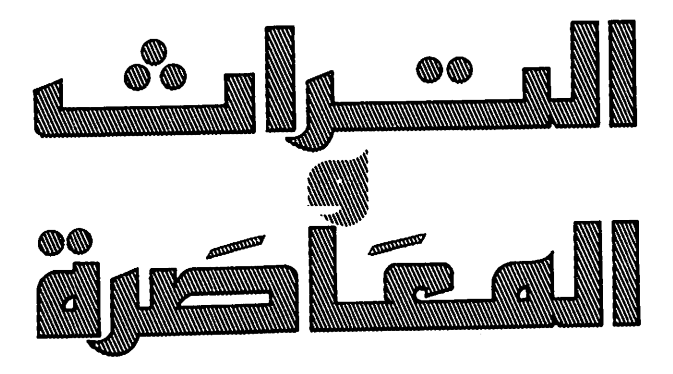


١٠



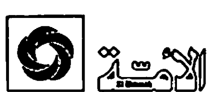
الدكتور أكرم ضياء العمري

بسم الله الرحمن الرحيم



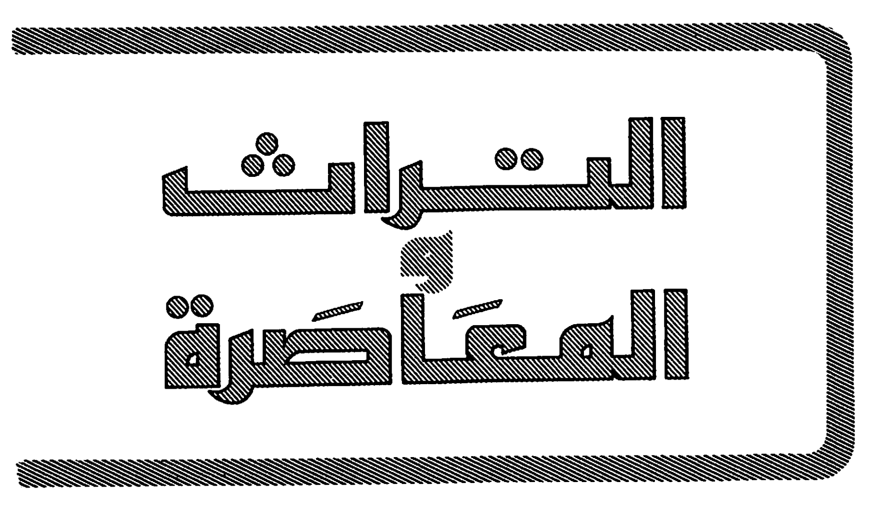
الدكتور أكرم ضياء العمري

الطبعة الأولى



سلسلة فصلية، تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، في دولة قطر.

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها.



شعبان ١٤٠٥هـ

تقديم

بقلم: عمر عبيد حسنة

■■ الحمد لله الذي أنزل على رسوله ﷺ قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (فاطر : ٣٢) وأورث النبوة الأمة المسلمة ، وجعلها محل الرسالة الخاتمة ، وحمَّلها الأمانة وناط بها مسؤولية الشهادة على الناس ، وبعد :

فهذا الكتاب العاشر في سلسلة «كتاب الأمة» التي تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر (التراث والمعاصرة) للدكتور أكرم ضياء العمري . . ولا شك أن مشكلة التراث والمعاصرة ، أو ما يعبر عنه بالأصالة والمعاصرة ، قضية لا تزال مطروحة في حياتنا الثقافية منذ أوائل القرن التاسع عشر تقريباً ، الذي حمل معه ـ إضافة إلى المواجهات العسكرية التاريخية ـ مواجهة من نوع آخر ، إنها المواجهة الحضارية الشاملة التي جاءت بها أوروبا إلى بلادنا حاملة معها نواتج نهضتها ووسائل تقدمها كلها ، إضافة إلى اعتقادها أن الحضارة الأوروبية وقيمها هي المقياس الوحيد لكل نهوض وتقدم ، تؤمن بذلك وتبشر به في عالمنا الإسلامي الذي أصيب بهذه الصدمة الحضارية ، وعاش حالة الانبهار التي أفقدته القدرة على التمييز والرؤية الصحيحة بعد أن توقف العقل المسلم عن الإبداع والعطاء ، وخرجت الأمة المسلمة من الساحة وافتقدت الفاعلية الحضارية ، وخيم عليها الركود ، وسادها مناخ التخلف ، وأصبحت القضية المطروحة على العقل المسلم بإلحاح :

كيف نواجه التحدي ونواكب العصر ؟

هل نعوض مركب النقص ، ونعالج هذه الأزمة النفسية ونردم

فجوة التخلف بتبني الثقافة والتقنية الغربية ؟ ذلك أن الذهنية التي خلّفتها حالة الانبهار أمام هذه الصدمة الحضارية أوصلت أصحابها إلى درجة الشعور بالاستحالة التي تقضي على كل محاولة للابتكار والإبداع ، وتشل كل نشاط ، والمغلوب مولع بتقليد الغالب .

لقد استجاب كثيرون لحالة الانبهار هذه ، وتعالت أصواتهم في المجتمع الإسلامي أن لا سبيل إلى اللحاق بـركب الحضارة والمعاصرة إلا بالانسلاخ الكامل من موروثاتنا كلها والالتحاق السريع بركب الحضارة الغربية ، ومحاكاة الإنسان الأوروبي في كل شيء حتى لباسه وعاداته .

وكان هذا النزوع إلى الأَوْرَبَة ـ إن صح التعبير ـ أحد ردود الفعل الذي أنتجته الصدمة الحضارية للعالم الإسلامي ، والذي سقط ضحيته أفراد ، وانتهت إليه دول في العالم الإسلامي ، واتخذوا من التراث المواقف الرافضة نفسها التي اتخذتها أوروبا ، وحاولوا تطبيق مقاييس الفحص والاختبار التي يجب أن تقتصر على أحكام العقل (فهوم الناس واجتهاداتهم) على التراث كله ، بما فيه الوحي (الكتاب والسنة) ، دون تمييز بين المعرفة الواردة عن طريق الحواس القابلة للخطأ والصواب وتلك المقررة من طريق الوحي ، فوقعوا بتناقضات واضطرابات رهيبة ، كانت سبباً في ضياع الأمة

وتيهها عن معالمها الراشدة .

وعلى الجانب المقابل أخذ هذا النزوع وجهاً آخر من الفخر والاعتزاز بالآباء والأجداد ودورهم التاريخي ، وإسهاماتهم المبدعة في مجال الحضارة والثقافة والعلوم كنوع من رد الفعل الطبيعي في الالتجاء إلى التاريخ والتراث للاحتماء به واتخاذه درعاً وحصناً يدفع غوائل التيار الكاسح القادم من بلاد غريبة عنا في ثقافتها وحضارتها وموروثاتها ، يستهدف ذاتنا الإسلامية ، ويعمل على تذويبنا ، وبذلك تُتَجَاوز حالة الشعور بالذل والهوان والانكسار النفسي التي أوقعتنا فيها الصدمة الحضارية .

إن الالتجاء إلى التراث ، والاحتماء بالتاريخ يعتبر رد فعل طبيعي لحماية الحالة النفسية للأمة من الانكسار ، والشخصية الحضارية التاريخية من الذوبان في مراحل المواجهة الأولى ، لكن تبقى المشكلة المطروحة هنا أن معالجة تخلف أي مجتمع من المجتمعات ، ونقله إلى المعاصرة المطلوبة لا تتحقق برواية أمجاد ماضيه واستغراقه في نشوة الفخر والاعتزاز ، واستسلامه للمديح الذي قد ينقلب إلى مانع ومعوِّق حضاري بدل أن يكون دافعاً إلى تجديد العمل على ضوء هذا الماضي ، وشاحذاً للفاعلية ، لأن

ظاهرة الإغراق في مدح الماضي ومثاليته ، والفخر به إذا تجاوزت الحدود المطلوبة للحماية ، تنقلب إلى معوِّق يبتعد بالماضي عن قدرة الأشخاص عن الإفادة منه حيث نقتصر على تعظيم البطل ونعجز عن محاكاة البطولة ، ذلك أن النهوض لا يمكن أن يتحقق بالاقتصار على رواية الماضي والافتخار به كبديل عن ممارسة تغيير الواقع ، كما لا يمكن في الوقت نفسه أن يتحقق باستيراده من خارج أفكار الأمة وقيمها .

وقد لا يجد الإنسان المتأمل كبير فارق بين دعاة المعاصرة هؤلاء الذين لا يرون سبيلها إلا بالتخلي عن الذات المترافق مع الشعور باستحالة اللحاق بالعصر الذي يشل الإمكانية ويعطل الفاعلية ، فيدعون إلى تقليد الغالب في الشيء كله ، وبين التراثيين ، أولئك الذين يقتصرون على الفخر بالماضي والاعتزاز به بحجة أن الأولين لم يتركوا للآخرين شيئاً ، كبديل عن الإسهامات المعاصرة من حيث النتيجة والممارسة العملية ، وإن اختلف المنطلق .

إنهم يقفون على أرض واحدة ، ويتنفسون هواء مناخ واحد هو مناخ الواقع المتخلف .

فلا دعاة التراث بالمفهوم السابق استطاعوا أن يرتكزوا إلى الماضي ويتزودوا منه لتغيير الواقع وصناعة المستقبل حيث إنهم

اقتصروا على الانتصار العاطفي للتراث والتاريخ ، واكتفوا به عن الفعل الحضاري . ولا استطاع دعاة المعاصرة بمعنى الانسلاخ عن الماضي ومحاكاة إنسان العصر الأوروبي ووسائله ، تقديم البديل أو المساهمة بأي نهوض أو عمل مبدع . لقد سقط دعاة المعاصرة هؤلاء بحفر من التخلف جاءت أشد عمقاً ، فكانوا أشد تقليداً وأسوأ حالاً من التراثيين .

إنهم يقلدون حضارة الغالب الغربية ، ويحاكونها ، ويعجزون عن أي إبداع في أي مجال سوى مجال الاستهلاك واستيراد أشياء الحضارة المادية ومفرزاتها الثقافية ، وتكديس هذه الأشياء والمفرزات والوقوف فوقها وكأنها من صنعهم ، فهم يعيشون وهْمَ المعاصرة لكنهم في الحقيقة أشد عجزاً من الآخرين وأشد بلاء ، ولعل بلاء التراثيين أقل ، حسبهم أنهم يقلدون ماضيهم ولو عجزوا عن الإفادة منه لحاضرهم ومستقبلهم ، وإن التقى الفريقان على ساحة التقليد .

وقد تتحدد المشكلة نوعياً في خطأ الطرح الذي جعل مفهوم التراث أو الأصالة مقابل مفهوم المعاصرة ، وانتهى إلى أنهما طرفا الاختيار الملزمان في المعادلة ؛ ذلك أن المقدمات المخطئة تقود بالضرورة إلى نتائج مخطئة ، وأنه لا سبيل آخر ؛ إلا اختيار أحد

الأمرين ، إما التراث وإما المعاصرة .

والحقيقة البادهة أن لا معاصرة دون أصالة ، ولا أصالة صادقة دون معاصرة فاعلة ، فالماضي بالنسبة للأفراد والأمم هو الذاكرة المصاحبة دائماً التي يختزن فيها الإنسان تجاربه وعبره ، ويوظف دورسها لحاضره ومستقبله ، ويورثها أولاده وأحفاده ، ويمكِّنه حضورها الدائم من الحكم على المستجدات على ضوء تلك التجارب ، والبون شاسع بين العاقل الذي يعتبر بماضيه بما فيه من دروس وعظات لحاضره ، وبين الأحمق مطموس الذاكرة الذي لا يمكن إلا أن يكون عبرة لغيره ؛ فالحاضر جزء منا ونحن جزء منه ، رضينا بذلك أم رغبنا عنه ، وكذلك الماضي هو جزء منا ونحن نسغ ممتد منه .

إن حصر القيم الإسلامية وفاعليتها وعطائها الحضاري بفترة تاريخية معينة يتنافى أصلاً مع خلودها ، كما يتعارض مع ختم الرسالة ؛ فلابد إسلامياً إذن وباستمرار من النزول إلى الساحة وتقديم الحل الإسلامي ، والقضية التي لابد من الانتهاء من مناقشتها والإجابة الحاسمة فيها لأنها انتهت إلى ضرب من الجدل اكتُفي به عن الممارسة عند الأطراف كلها :

هل المواكبة للعصر ، وقبول التحدي يفقدنا الهوية ويؤدي

لضياع الذات ، أم أن الأساس الصحيح والتجربة التـاريخية (الأصالة) تعطينا نوع أمن ، وتجعلنا قادرين على النزول إلى الساحة استجابة لخطاب التكليف ، وتسلّحنا بالمقاييس الصحيحة للقبول والرفض ، والقدرة الهاضمة للثقافات والمنجزات الحضارية دون الذوبان أو الخوف منه ؟!

وهذا الذي حدث بالفعل في عصور النهوض ، وتعطل في حقب التخلف عندما توقف العقل الإسلامي ، واهتز تركيبه ، وافتقد ترتيبه .

لقد كان شعار العقل المسلم : «الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها» لكن أين العقل الذي يميز الحكمة من غيرها على ضوء مقاييس متميزة في الأخذ والعطاء الحضاري اليوم ؟!

وقد يكون من الأمور المطلوبة اليوم أكثر من أي وقت مضى ـ وقد أخذ الجدال حول موضوع التراث والمعاصرة قرابة قرن من الزمن ، ولا تزال تعقد له الندوات حتى اليوم ـ الانتهاء إلى تحديد واضح لمفهوم التراث ، ووظيفة التراث بعد التمييز في التعامل بين أحكام العقل وأحكام الوحي ، كما لابد في الوقت نفسه من تحديد مفهوم المعاصرة في إطار الفكر الإسلامي ، وأن من أوائـل شروطها :

القدرة على هضم التراث واستيعابه ، وليس القفز من فوقه ، واستيعاب تطور شبكة العلاقات الاجتماعية ، وتبدل وظائف الدولة الحديثة وامتداد سلطانها ووسائلها ومؤسساتها ، ومفرزات الحضارة الحديثة التي تنتسب إلى أصول غير إسلامية ، ومن ثم القدرة على تنزيل الإسلام على واقع الناس ، أو المحاولة من أهل التخصص ، وليس أهل الإنشاء الخطابي ، لوضع الأوعية الشرعية المعاصرة لاستيعاب حركة الناس ، أو بمعنى آخر :

البدء بالممارسة الإسلامية بعد أن تجددت ذاكرة المسلمين تجاه دينهم ، وتحقق الانتماء ، وأُمِنَ الذوبان ، وانتهت مرحلة تحقيق الذات ، فلا مناص من الانتقال من مرحلة المبادىء والتعميم إلى مرحلة البرامج والتخصيص ، وامتلاك القدرة من خلال التصور التراثي على تقديم الحل الإسلامي للمشكلات المعاصرة ، والانتهاء من مرحلة الاستغراق في رؤية المشكلات التاريخية ، إلا بالقدر الذي يحقق البصارة والقدرة على تعدية الرؤية ، وبذلك تحقق الذات الإسلامية وظيفتها في الشهادة على الناس ، وحسن قيادتهم ، وإلاَّ ففاقد الشيء لا يعطيه .

ولا نعتقد أن هناك مسلماً يعني بالمعاصرة : الصورة القائمة في استيراد منتجات العصر الثقافية والتقنية بشكل أعمى وعشوائي ،

أو يعني بالأصالة : الانكفاء نحو الماضي والاحتماء فيه ، وعدم الخروج به إلى الإفادة منه في معالجة الواقع المعاصر ، واستشراف آفاق المستقبل على ضوء تلك المعطيات ؛ لأن حياة الأمم والأفراد لا تخرج عن كونها حلقات متكاملة تؤسس كل منها على الأخرىٰ ، قال تعالى :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على تَقْوى مِنَ الَّلهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ علىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَالَّلهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة : ١٠٩)

ويمكننا القول : إن الكتاب الذي نقدمه اليوم استطاع أن يقدم ملامح مضيئة ومعالم واضحة للإفادة من التراث في معالجة المشكلات المعاصرة ، وقد عرض لأهمها ؛ كالمشكلة الاجتماعية والتشريعية والثقافية واللغوية إضافة إلى المشكلة السياسية ، وكان له وقفة موفقة عند العصر العباسي حيث ترسب في أذهان كثير من الناس أن التجزئة في ذلك العصر كانت سبباً في إثراء المعرفة ، وكأن وحدة المسلمين هي عامل تخلفهم !!

كما دعا إلى وضع استراتيجية واضحة ودقيقة للثقافة الإسلامية من أجل مراعاة مبدأ تراكم المعرفة في النتاج الجديد حفاظاً على الطاقات ، ورغبة في الوصول إلى نتائج تخدم القضية الإسلامية في

هذا العصر بناء على دراسة الواقع التاريخي إلى جانب الواقع المعاصر .

كما أكد على أهمية أن تقوم دراسات ناقدة تجيب عن مجموعة أسئلة تحدد أهداف العمل وغاياته ، والحدود والشروط والوسائل اللازمة لترشيده وتوجيهه الوجهة السليمة ، وتُجلِّي السلبيات والإيجابيات ، وتحرك الركود والخمول الذهبي الذي يعطل فاعلية المسلمين اليوم ، لأن غياب حركة النقد أدى إلى فوضى فكرية تتمثل في ضياع مقاييس التقويم ، وكثرة التكرار في الأشكال والمضامين ، وغلبة السطو الأدبي .

وحتى لا تبقى الطروحات نظرية وأقرب إلى المتعة الذاتية منها إلى الواقع المعاصر المعاش ، قدَّم الكتاب نظرات فاحصة ، ونماذج هادية في إطار الجامعات الإسلامية اليوم ، وعلّق عليها الأمل إذا وعت مهمتها لتؤدي دورها في تحديد ملامح المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، والحفاظ على تميزها وتكاملها وقدرتها على النهوض بالتعليم الإسلامي ليصبح مؤثراً فعالاً في بناء الفرد ، وصياغة الجماعة ، وتقديم القيادات ذات الكفاءات المؤمنة للعالم الإسلامي ، والقيام بالوظيفة المنوطة بها في تحقيق السعادة وسكينة النفس عن طريق الهداية ، وتأمين الرفاهية والتقدم عن طريق

التقنية ، وبذلك تتوفر لعالمنا الإسلامي الأصالة والمعاصرة على حد سواء .

ولا شك أن الكلام عن مهمة الجامعات الإسلامية ودورها يبقى ذا أهمية كبيرة ، لأن المفترض بهذه المؤسسات التعليمية الكبيرة أن تكون المختبرات الحقيقية لهضم التراث وإنتاج المعاصرة من خلال رؤية علمية تراثية عاقلة بعيدة عن الحماس والانتصار العاطفي .

والحقيقة التي لا بد من تسجيلها هنا أن واقع الكثير من الجامعات في العالم الإسلامي يدعو إلى الأسىٰ ، ذلك أنها لمّا تتحرر بعد من ربقة التحكم الثقافي الذي ترافق مع إنشائها سواء في عصر الاستعمار أو عصر ما بعد الاستعمار والخضوع للنظريات التربوية الغربية في تصور الإنسان والكون والحياة ، والمناهج الغربية في طرائق التحقيق والنقد ومناهجه التي أُنضجت هناك ثم استوردت إلى جامعاتنا مع ما استورد من أشياء الحضارة الاستهلاكية ، لذلك عجزت الجامعات في الماضي أن تحل مشكلة المجتمعات الإسلامية ، وقد يكون الكثير من التقدم والوعي واليقظة الإسلامية أو مايسمى اليوم بالصحوة الإسلامية حصل خارج أسوار الجامعات التي لم يكن للإسلام دور في صياغة مناهجها الأمر الذي لم يخل من بعض المشكلات والتي يجب أن تُسأل عنها الجامعات بالدرجة

الأولى ، ونستطيع أن نقول : إن الوعي الإسلامي جاء إلى الجامعات بدل أن يخرج منها إلى المجتمع ؛ لقد أدرك المخططون للعالم الإسلامي خطورة المؤسسات التعليمية على مستقبله الثقافي والحضاري فكان التحكم الثقافي من أخطر البلايا والرزايا التي رمانا بها .

يقول الشاعر أكبر الإلٰه أبـادي :

« يا لبلادة فرعون الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات ، وقد كان ذلك أسهل طريق لقتل الأولاد ، ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة في التاريخ » .

وبعـــــد :

فهذا الكتاب الذي نقدمه اليوم للدكتور الفاضل : أكرم ضياء العمري ليس ذا مضمونٍ تقليدي يتحدث عن التراث وقيمته ، ومخطوطاته وأعدادها وأمكنتها ، وخطط إحيائه أو تحقيقه ، فلذلك مجال آخر وكتاب آخر ، بقدر ما يقدم ملامح مضيئة ، ونماذج هادية ، وقراءة سليمة لهذه النماذج للإفادة من التراث على مستوىٰ المعاناة التي يعيشها العالم الإسلامي والعالم التي لا تدع بديلاً عن ضرورة الإفادة من هذا التراث في عملية الإقلاع الحضاري ، وهذا

لا يتأتى من أعمال عشوائية تغلب عليها الصفة التجارية في تحقيق الأرباح أو الحصول على الشهادة ، أو خطب حماسية تحقق المتعة الذاتية ولا تتقدم أنملة واحدة على طريق تقديم الحل الإسلامي ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . ■■

مقدمة

الحمد لله الولي المنعم ، والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه وسلم .

يثور في الأوساط الثقافية جدل طويل حول ما سمي بـ « قضية التراث » ، وقد أُلقيت محاضرات ، وكُتبت مؤلفات ، وعُقدت ندوات لبيان مكانة التراث في حياتنا المعاصرة ، ولا شك أن هذه القضية ما كانت لتظهر لولا الفصام الذي ظهر بين ماضينا وحاضرنا على أثر غزو الحضارة الغربية وثقافتها ومفاهيمها الفكرية للعالم الإسلامي بحيث صار من الضروري أن يؤكِّد على ملامح متميزة وطوابع ذاتية تحول دون ذوباننا في عالم الغرب .

وقد أذكىٰ الصراع السياسي والعسكري بين الشرق الإسلامي والغرب الاستعماري ـ في النصف الأول من القرن العشرين خاصة ـ دوافع جديدة للتحدي وللرغبة في التميز والتأكيد على « الذات » في عالمنا .

وجاء الغزو الفكري الغربي خلال فترة التسلط الاستعماري المباشر وبعدها يُعبِّر عن اعتزاز الغرب بثقافته ولغته وتقاليده وقيمه التي حاول فرضها على البلدان المسْتَعْمَرَةِ ، واستمر يغذيها عن طريق وسائل الاتصال المختلفة حتى بعد خروج عساكره من العالم الإسلامي ، وقد ساعده التقدم التكنولوجي الهائل على تحقيق نجاح كبير في مساعيه ، وكان لا بد أن يظهر رد الفعل في العالم الإسلامي ليؤكد على الذاتية والخصوصية وتوظيف التراث لتحقيق ذلك . .

ولكن « قضية التراث نفسها » لم تنج من آثار الغزو الفكري ، فقد طرحت أحياناً بمنظار غربي بحيث احتل « الفلكلور » مساحة واسعة ، مما حول القضية إلى نمط من المتعة الثقافية التي أضافها الغربيون أنفسهم إلى أنواع الترف الفكري الذي يعيشونه بعد أن حققوا أحلامهم في الثروة والسيطرة على عالم اليوم .

ولا شك أن قضية « التراث » بهذا المنظار لن يكون لها أثر كبير في تشكيل شخصيتنا الحضارية ، لذلك يتقبلها التيار الرافض للتراث بمعناه الشامل ، وهو تيار يرىٰ في التراث معوِّقاً للوصول إلى

النهضة التي لن تحدث ـ في رأيه ـ إلاَّ بمتابعة خُطا الحضارة الغربية ، وهو طريق مضمون النتائج .

ولكن العديد من المثقفين المتشبعين بالتراث وروحه تخطَّوْا هذا الطرح الهزيل لقضية التراث التي يرونها تتمثل في بعث روح حضارية تربط الحاضر بالماضي ، وتؤكد على الأصالة تأكيدها على المعاصرة ، ورغم أنهم لا يؤمنون بشد العربة إلى الوراء ولا الالتزام الحرفي بكل جوانب الماضي بل يؤكدون على عوامل التقدم الحضارية ، لكنهم يضعون إطاراً عاماً للتطور يحكمه الوحي الإلٰهي الذي ينبغي أن يشكل روح الحاضر ودستوره العام ، كما كان في عصور الإسلام الذهبية . . . وهذا التيار يمثل الاتجاه السلفي الذي اشتدت قوته في العقود الأخيرة ، وعبرت عنه وسائل الإعلام بـ « الصحوة الإسلامية » .

ويقف بين الاتجاهين أصحاب الحلول الوسطية التوفيقية يمثلون تياراً انتقائياً يسعى للتوفيق بين قيم التراث والحضارة الغربية ، وهو يقتربُ مرة من الاتجاه السلفي عندما يسلم بالوحي الإلٰهي ودوره في بناء حضارة إسلامية معاصرة ، ويقترب أخرىٰ من الاتجاه الرافض للتراث بمعناه الشمولي عندما يجعل الانتقاء يمتد إلى الوحي الإلٰهي نفسه ، ويعامله مثل بقية المعطيات الأخرىٰ .

وأحياناً يشتد التناقض في ذهنية بعض التوفيقيين ، ويحاولون

الخلاص باقتراح الفصل بين القرآن والسنة باعتبارهما وحياً إلٰهياً وبين النتاج الثقافي والحضاري في التراث ، ليتم الانتقاء والنقد بحريَّة دون المساس بالعقيدة الدينية . . . والحق أن هذا الرأي يبعد عن واقع المشكلة الحقيقية لأن الفصل غير ممكن عملياً ، ولأن النقد يمكن أن يتعرض للعقيدة والشريعة من خلال نقد قيم التراث المستمدة من الوحي الإلٰهي . .

إن هذه الدراســـة التي أقدم لها تعرض قضية « التراث » بمفهومها الشمولي لتوضح العلاقة بين التراث والمعاصرة ، وتبرز مفاهيم التراث الجديرة بالاهتمام والعناية ، والتي لا بد لنا منها في تشكيل شخصيتنا الحضارية ، ووقوفنا أمام تحديات العصر ، ﴿ وَٱللهُ غَالِبٌ عَلىٰ أَمْرِهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف : ٢١) .

الفصل الأول

ملامح حركة إحياء التراث المعاصرة

لا بد قبل تناول الموضوع من تحديد معنى التراث لغة واصطلاحاً ، مع ملاحظة ما أحاط الاصطلاح من المعاني والظلال الحديثة المتأثرة بالثقافة الغربية ومصطلحاتها الحضارية .

التراث لغــــة : ما يخلفه الرجل لورثته ، وأصله وِرْثٌ أو وِراثٌ ، فأبدلت الواو تاءً ، فالتراث والإرثُ والوِرثُ مترادفة . هكذا قال ابن الأعرابي ومن بعده ابن سيده ، وقيل : الوِرْثُ والميراثُ في المال ، والإرثُ في الحَسَب[1] . مما يشير إلى الميراث الثقافي ؛ لأن الحَسَبَ هو مفاخر الآباء وشرف الفِعال التي يرثها الأبناء ويتغنون بها . وقد اعتبر الزمخشري هذا الاستعمال الأخير لكلمة «الإرث» من قبيل المجاز[2] .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة « ورث » .

(٢) أساس البلاغــة : ٤٩٥ .

وقد وردت كلمة « التراث » في القرآن الكريم مرةً واحدة بمعنى الميراث في الآية الكريمة :

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ (الفجر : ١٩) والمعنى : تأكلون الميراث أكلاً شديداً لا تسألون أمِنْ حلال هو أم من حرام [تفسير الطبري ٣٠/١٨٣] .

كذلك وردت في السنة بمعنى الميراث كما جاء في الدعاء « ولك ربِّ تراثي »[٣] ، وحديث الثناء على المؤمن العابد قليل الحظ من الدنيا ففي آخره : « وكان عيشُهُ كفافاً فعجلت منيتُه وقلَّت بواكيه وقلَّ تراثُهُ » قال الإمام أحمد : تراثُهُ : ميراثُهُ[٤] .

وهكذا فإن كلمة « التراث » في لغة العرب تعني الميراث ، وهو يشمل المال والأحساب ، وقد ورد في القرآن للدلالة على الميراث الديني والثقافي كما في قوله تعالى في دعاء زكريا عليه السلام :

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ (مريم : ٦) « فإنه يعني وراثة النبوة والعلم والفضيلة دون المال ، فالمال لا قدر له عند الأنبياء حتى يتنافسوا فيه . . . »[٥] ، وكذلك في قوله تعالى :

---

(٣) الترمذي ، سنن ، كتاب الدعوات : ٨٧ .

(٤) الترمذي : سنن ، كتاب الزهد : ٣٥ وابن ماجه : سنن ، كتاب الزهد : ٤ ، ومسند أحمد : ٥/٢٥٢ .

(٥) الراغب الأصبهاني : المفردات في غريب القرآن : ٥١٩ .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (فاطر : ٣٢) . فالمقصود هنا وراثة الاعتقاد والإيمان بالكتب المنزلة قبل القرآن[٦] .

وممن أطلق كلمة الميراث على التراث العقيدي والثقافي الصحابيُّ أبو هريرة رضي الله عنه حيث خاطب الصحابة رضي الله عنهم بقوله : « أنتم هنا وميراث محمد ﷺ يوزع في المسجد . . . » ، فلما انطلقوا إلى المسجد اندهشوا إذ لم يجدوا سوىٰ حَلَق الذكر وتلاوة القرآن . فأوضح لهم أبو هريرة رضي الله عنه أن هذا هو ميراث محمد ﷺ[٧] .

وبذلك يتبين أن التراث في لغة العرب معناه الميراث ، وأنه يطلق على وراثة المال والحسب والعقيدة والدين .

فالتراث الإسلامي هو ما ورثناه عن آبائنا من عقيدة وثقافة وقيم وآداب وفنون وصناعات وسائر المنجزات الأخرىٰ المعنوية والمادية ، ومن ثم فلن يقتصر التراث على المنجزات الثقافية والحضارية والمادية بل إنه يشتمل على الوحي الإلٰهي (القرآن والسنة) الذي ورثناه عن أسلافنا ،

---

(٦) تفسير الطبري : ١٣٦/٢٢ .

(٧) الهيثمي : مجمع الزوائد : ١٢٣/١ ، وقال : رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن .

وعندما نتبنى هذا التعريف الشامل للتراث ؛ فإن النظرة إليه والتعامل معه لن يكون واحداً ، إذ أن الوحي الإلٰهي لا يقبل الانتقاء والاختيار منه أو محاولة تطويعه للواقع ، أو التفكير بتوظيفه لتحقيق مصالح خاصة أو عامة ، بل هو إطار يحكم الحياة ؛ ولكنه يدعها تتطور داخله ، فإذا انفلتت خارجه فقد وقع انحراف لا بد من تقويمه .

وقد حذَّر القرآن نفسه من محاولة الانتقاء هذه :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إلاَّ خِزْيٌ فِي ٱلْحَياةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلىٰ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (البقرة : ٨٥) .

وأما المنجزات البشرية الحضارية والثقافية فإنها قابلة للانتخاب والتوظيف وفق الرؤية المعاصرة وحسب الحاجة والمصلحة .

مصطلح التراث في الحضارة الغربية

ورغم أن مصطلح التراث (LEGACY) في الحضارة الغربية المعاصرة يطلق أيضاً على المخلفات الحضارية والثقافية والدينية ؛ فإن الروح العلمانية (غير الدينية) المهيمنة على الفكر الغربي الحديث جعلته لا يميز بين الدين وبقية الإرث الحضاري ؛ بل هو يتعامل مع التراث على سواء بين ما مصدره الإنسان المخلوق وما مصدره الإله الخالق ، فالكل يتعرض لعملية النقد والانتقاء والقبول والرفض ، ويخضع الدين لهذا المنهج دون أية قداسة .

ومن هنا يكمن خطر اعتبار الدين تراثاً ضمن الظلال العلمانية الغربية التي أحاطت بمصطلح « التراث » ، فالمشكلة إذَنْ ليست في تعريف التراث كاصطلاح علمي حضاري ، وإنما في هيمنة الفكر الغربي وقيادته للعلوم وللثقافة ، وتحديده لمصطلحاتهما وصبغهما بصبغته غير الدينية .

الاحتراز يقتصر على الكتاب والسنَّة دون غيرهما

وبالطبع فإن الاحتراز يقتصر على الوحي الإلٰهي (الكتاب والسنة) ولا يتعداهما إلى الفقه أو الاجتهادات الفكرية ؛ التي أثمرها العقل المسلم من خلال تفاعله مع الوحي الإلٰهي ، ومحاولته فهم الكتاب

والسنة والاستنباط منهما .

إذ لا ضرر من الانتخاب أو النقد عند التعامل مع المنظومات الفكرية والفقهية ، وما دام الدين يدخل في التراث ونحن نعيش الدين وقيمه ومقاييسه ؛ وإن علاها غبش حيناً ، وأصابها انحراف حيناً آخر ، وما دامت التقاليد والأعراف الاجتماعية الموروثة تدخل في التراث رغم أننا نعيشها ربما منقحة ، أو مختزلة ، أو متطورة لكنها ليست منفكة عن جذورها القديمة ؛ ما دام الأمر كذلك فلن يبقى ثمة مجال للتساؤل إن كان التراث شيئاً دارساً نريد أن نحييه ، فحياتنا الحاضرة ليست منبتّة الجذور ولا مجهولة الأصول ، ولكن الصلة بين حاضرنا وماضينا تبدو ضعيفة أصابها الوهن بسبب الاضمحلال الحضاري ، وضعف عملية التواصل الثقافي خلال القرون الأخيرة .

وعندما بدأت النهضة الحديثة في العالم الإسلامي لم تواكبها رؤية واضحة لقضية التراث وحركة الإحياء ، بل إن وقوع المنطقة تحت دائرة نفوذ الحضارة الغربية القوي ولَّد تيارات فكرية معادية لحركة الإحياء ، ومؤيدة للسير وراء الحضارة الغربية ، مما ولَّد التناقضات في بنية المجتمع الإسلامي الحديث وأعاق نهضته الحضارية ، فالحضارة إنما تولد وتزدهر في مجتمع تحكمه « أيديولوجية » واضحة توحد حركته باتجاه الهدف ، وتعطيه الحوافز الروحية اللازمة للبناء والتقدم .

ما جـــدوىٰ حركة إحيـــاء التراث ؟

ولكن ما جدوىٰ حركة الإحياء ، وتقوية الصلة بين حياتنا المعاصرة وجذورنا التراثية ؟ لقد طفرت الحضارة الغربية خلال القرون الأخيرة متجاوزة كل منجزاتنا التراثية في حقل الطب والفلك والرياضيات وفنون الصناعات . . فهل نريد البناء على منجزاتنا الماضية ؟ وعندها سنحتاج إلى قرون طويلة من التطور البطيء لنصل ـ أو لا نصل ـ إلى ما وصل إليه الغربيون في هذا المضمار .

وإن كان الهدف من إحياء التراث العلمي الاعتزاز بمنجزات الماضي وبيان دورنا في الحضارة العالمية ، وأثرنا على الحضارة الغربية يوم أن كانت في مهدها ، فهو أمر معقول وهو يولد الاعتزاز بالذات ، وقد يجرُّ اعتراف الآخرين بذلك إلى زيادة احترام أمتنا ؛ مما له أثر في العلاقات مع عالم اليوم .

أما النهضة العلمية الذاتية فيمكن أن ترتكز على روح التراث وحوافزه الروحية والفكرية أكثر من منجزاته العلمية والصناعية ؛ هذه الروح التي توجِدُ محاضن صالحة للتكنولوجيا المنقولة عن الغرب تجعلها مغروسة في بيئتنا ، وملائمة لحضارتنا ، ومتفقة مع أهدافنا ، وقد تدفعنا هذه الروح إلى تجاوز الحضارة الغربية في مرحلة تاريخية لاحقة .

ومن أجل أن تكون الرؤية واضحة يلزم تحديد الأهداف بدقة واختيار

الوسائل الملائمة ، ولا بد من دراسات واسعة لمعرفة قيم التراث وأثر إحيائه على حياتنا العقيدية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

حركة الإحياء مختلفة بين الشرق والغرب

ولا بد من ملاحظة الاختلاف بين الظروف التي أحاطت حركة الإحياء (الرينيسانس) في الغرب في عصر النهضة الأوروبية ، وبين حركة الإحياء الإسلامية الحديثة .

لقد سعى العلماء في عصر النهضة الأوروبية لتوثيق علاقتهم الفكرية والنفسية بتراث الرومان واليونان متجاوزين تاريخ النصرانية والكنيسة بسبب حالة العداء بينهم وبينها ؛ فكان هدفهم إحياء التراث الوثني وإبرازه لقطع الصلة بالحاضر والماضي النصراني ، لذلك صاحبت حركة الإحياء حملةً عنيفة على الكنيسة والنصرانية وقيمها .

ويمكن أن نتلمس هذه الحملة في أدبيات القرون الأربعة المتعاقبة منذ عصر النهضة الأوروبية حتى القرن العشرين ، فهذه الظاهرة واضحة في الأدب الكلاسيكي (أدب القرن السابع عشر) الذي كان « يستوحي الآداب اللاتينية واليونانية ويستمد منها مادته »[٨] . بل إن المدرسة النقيضة للكلاسيكية ، والتي عرفت بالرومانتيكية ، واستمدت من أدب

(٨) محمد مندور : في الأدب والنقد : ١٢٠ .

العصور الوسطى ممثلة في « ديدرو » و « فولتير » و « روسو » و « دالامبير » و « كوندورسيه » كان يغلب عليها التحلل من الدين والتقاليد ، رغم أن بعضهم مثل « روســو » عبَّر عن إيمانه بالله وثورته على الكنيسة وفلسفتها التربوية[9] . . .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهرت المدرسة الجمالية التي أعلنت عدم الالتزام بقيم المجتمع الخلقية والدينية حتى قال « أوسكار وايلد » : « ليس ثمة كتاب يمكن أن يوصف « باللاأخلاقي » : إذ ليس ثمة سوىٰ كتب حسنة التأليف وأخرىٰ سيئة التأليف »[10] .

القـــرن العشرون وسيطرة العبثية

أما في القرن العشرين فقد سيطرت العبثية وفقد اليقين الديني ، ونجحت جهود حركة الإحياء الأوروبية في عزل الأجيال الصاعدة عن النصرانية ، حتى قال « أندريه مالرو » في كتابه : (إغراء الغرب) عام ١٩٢٥م : « في اللب من الإنسان الأوروبي ثمة عبثية جوهرية تسيطر على اللحظات الكبرىٰ في حياته . . . »[11] .

---

(٩) المصدر السابق : ١٢٦ ، ١٢٩ .

(١٠) موسوعة المصطلح النقدي ، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة : ٣١٤ .

(١١) موسوعة المصطلح النقدي : ٥٤٦ ــ ٥٤٧ .

وقد عبرت مسرحيات اللامعقول مثل : (أسطورة سيـزيفوس - ١٩٤٢م) لـ « كامي » عن خيبة الأمل وضياع اليقين ، والتي تُظهر انعدام المعنى وضياع المثل التي تميز هذه المرحلة من تاريخ الحضارة الغربية (النصف الأول من القرن العشرين)[١٢] .

وقد أثر المسرح الغربي كثيراً في مجال نقد القيم الدينية في القرن العشرين ؛ حتى عبر عن هدفه « دبليو . أ . أرمسترونك » بقوله : (... إن كُتَّاب المسرح قد جعلوا منه مركز تجمع لصراع الخيال البشري الدائم ضد القناعة الدينية ، وعدم الاكتراث الخلقي والإمَّعية الاجتماعية)[١٣] .

فلا غرابة إذا ما عانت حضارة الغرب من الخواء الروحي والإفلاس القيمي ؛ مما يعرضها للسقوط كما عبرت دراسات الناقد « كولن وِلْسُن » في (اللامنتمي) و (سقوط الحضارة) .

ولا تزال الآداب الأوروبية حتى الآن ملتصقة بالأساطير اليونانية التي حظيت بالتحليل النفسي والأشكال الفنية الحديثة ؛ كما تظهر في مجموعات « سارتر » و « كامي » الأدبية ، والأهم من ذلك أن قيم الحياة اليونانية والرومانية ، وما تحمله من عنصرية وصراع وحب للقـوة

---

(١٢) المصدر السابق : ٥٣٩ .

(١٣) المصدر السابق أيضاً : ٥٢٦ .

وانغماس في المادة صارت نتيجة حركة الإحياء سمتاً للحضارة الغربية المعاصرة ، والتي لم تعد النصرانية تمثل فيها أكثر من صبغة باهتة أمام الألوان الفاقعة للمادية المهيمنة .

أهميـــة التراث وضرورة تيســيره

إن التراث هو الهوية الثقافية للأمة ، والتي من دونها تضمحل وتتفكك داخلياً ، وقد تندمج ثقافياً في أحد التيارات الحضارية والثقافية العالمية القوية . . وبالنسبة للمسلمين فإنهم يتعرضون لهذا التفكك ويندفعون بقوة مطردة نحو التيارات العالمية المتباينة ، ويمكن أن نتلمس أسباب ذلك أو بعضها في طبيعة التراث من ناحية ، وفي طريقة الإفادة منه ثانياً ، وفي القيم العامة التي تحكم إلى حد ما ـ ولو على صعيد القيادات الفكرية ـ عملية التفاعل معه ثالثاً .

فأمَّا طبيعـــة التراث ، فإن معظم التراث الإسلامي يتمثل في المكتبة العربية والتي ترجع بدايتها إلى فجر التاريخ الإسلامي ؛ عندما قامت حركة التدوين في القرن الأول ، ثم انتهت إلى التصنيف في القرن الثاني ، وازدهرت كثيراً في القرن الثالث ثم الرابع ، ولا يعني ذلك غمط جوانب التراث الأخرىٰ حقوقها أو التقليل من آثارها ، فإن الأعراف الاجتماعية والتقاليد والقيم الخلقية تتوارثها الأجيال اللاحقة وتكتسبها من الأجيال السابقة ، وكذلك فإن المخلفات المادية المحفوظة توضح

المستوىٰ الحضاري للأمة ومدىٰ تنوع نشاطها في الماضي ، ولكن من الواضح أن المكتبة العربية هي أهم جوانب التراث الإسلامي ، وقد كتبت معظم المؤلفات بلغة أدبية رفيعة مما يرتفع بالذوق الأدبي والثروة اللغوية للقارىء ؛ الذي لا بد أن يتمتع بمستوى لغوي وثقافي مناسب ؛ ليتمكن من الإفادة من المكتبة العربية (الكلاسيكية) .

وإذا كانت هذه الظاهرة من مزايا التراث ـ وهي كذلك ـ فإنها تؤدي إلى العزلة بينه وبين الجماهير التي تحتاج إلى تيسيره وتوطئته ؛ إذ ليس من المعقول أن نطالب الجمهور الواسع بالارتفاع إلى المستوى الفني اللازم للتعامل مع التراث في الوقت الذي نعرف تماماً أن معظم الأكاديميين يلقون صعوبات شتى في هذا المجال ؛ بل إن معظم المحاضرات في الأقسام الأدبية المتخصصة لا تُلقىٰ باللغة العربية الفصحى !! .

إن عملية نقل التراث إلى الأجيال المعاصرة ليست سهلة ، فإن احتمال التحريف المتعمد للقيم التراثية يعتبر من أبرز الأخطار التي اقترنت بما تم في هذا المجال ؛ بسبب الغزو الثقافي الذي تعرضت له أرض الحضارة الإسلامية ، والذي أدىٰ إلى إحلال قيم ثقافية جديدة تتصل بالحضارة الغربية ولا ترتكز إطلاقاً على جذورنا الثقافية .

إن التيسير المطلوب والتوطئة المقصودة ؛ تحتاج إلى أقلام تؤمن بعقيدة الأمة الإسلامية ، وتُقِرُّ بجدوىٰ تجديد روح الأمة وقيمها بالارتكاز على جذورها الحضارية والثقافية . ومن دون ذلك لن يكون التيسير

إلاَّ تشويهاً منظماً وتخريباً مقصوداً ، ولن يثمر في تعميق الوحدة الثقافية للأمة بل سيزيد في الفصام ، ويقوي التشتت والإحساس بالضياع وفقدان الهوية .

نعم ، إن ثمة صحوة لا بد من الاعتراف بها ومن تقويمها . . صحوة نحو إحياء التراث تختلف عن حركة « الرينيسانس » الأوروبية بكونها تلتصق بالجذور القريبة ، ولا تعاني من مشكلة حذف مرحلة تاريخية معينة كما حدث لحركة الإحياء الأوروبية ؛ إن هذه النظرة الإيجابية التي تتسم بها حركة الإحياء الإسلامية الحديثة ذات أثر عميق في التعامل مع التراث . .

ولعل من المظاهر القوية لهذه الصحوة : الإقبال الكبير على تحقيق النصوص التراثية ونشرها ، تتعاون في ذلك المؤسسات الجامعية والعلمية والتجارية . . ورغم أن ذلك يتم بصورة عشوائية إلى حد ما ؛ من حيث عدم الوضوح الاستراتيجي ، وعدم تقديم الأولويات ، بل عدم الاتفاق على قواعد نشر محددة ، فإن ذلك سيؤدي حتماً إلى تكامل المكتبة العربية القديمة ؛ مما يهيىء المجال أمام الباحثين للقيام بدورهم في التحليل والتركيب ؛ بغية وصل الحاضر بالماضي ، وفي الوقت نفسه دفع الحاضر إلى الأمام للَّحاق ببقية المتسابقين بالاعتماد على تقوية الجذور وتحديد الهوية خوفاً من الضياع في حلبة السباق . .

فلا بد أن تكون معالم الطريق واضحة ، وأن تكون خُطا الأمة ثابتة واثقة ، وأن يسودها روح التحدي للتخلف والتمرد على الواقع .

فالطفرات هي الوسيلة الوحيدة للّحاق بالآخرين فضلاً عن سبقهم ، وما دام الأمر كذلك فلا بد من دراسة التاريخ الحضاري العالمي وخاصة فترات الأزمات العصيبة التي مرت بالأمم ، ولا بد من أن تتحول الدراسات إلى روح عامة في الأمة ولا تقبع في مدارج الأكاديميين أو على رفوف المكتبات .

ضرورة ترشيد حركة التحقيق العلمي للمخطوطات

لقد دخل إلى ميدان النشر تجار الكتب والطفيليون ، فتم إخراج الكثير من المؤلفات بصورة سقيمة مليئة بالتحريف والتصحيف فضلاً عن الأخطاء الطباعية ، وامتلأت جيوب هؤلاء بالمال على حساب التراث ومحبيه ، حتى إذا اهتم العالم المتخصص بنشر كتاب ما بصورة علمية ، وأمضى شطراً من حياته في خدمته ؛ وجد أن السوق تعاني من سياسة الإغراق التي يستخدمها التجار بحيث لا يجد لكتابه مشترياً بعد أن اقتنى الناس نسخهم قبل صدور طبعته ، ولا يكتفي التجار بذلك ، بل هم يلاحقون كتابه حتى إذا رأوا نشره مجدياً اقتصادياً حذفوا اسم المحقق وطبعوه ، وأحياناً صوروه وباعوه بثمن أقل ؛ لأن كلفة التصوير وإمكانات الناشرين أقوى من المؤلف مما يُمكِّنهم من خفض الكلفة كثيراً .

إن الطريق السليم لإنقاذ حركة النشر يتمثل في دعم المؤسسات المعنية لها بواسطة الترشيد العلمي أولاً ، ثم التبني للنشر ثانياً ، ثم

التكفل بالتوزيع ثالثاً ؛ بحيث لا يتدخل المحقق في أعمال الطباعة والتسويق ، وإنما تنحصر جهوده في التحقيق العلمي للكتاب وتسليمه للمؤسسة التي تتولى مكافأته وإخراج كتابه وتسويقه ، ولا يقتضي ذلك أن يتضخم جهاز المؤسسات ؛ إذ يمكن أن تتعامل مع دور النشر وفق شروط مناسبة ، وسوف تكون أقوىٰ بكثير وأقدر على فرض شروطها من المحقق .

إن مشاكل الكتاب كثيرة ، وقد استمرت معاناة المؤلفين والمحققين منذ مطلع هذا القرن دون أن تتمكن الجهات المتخصصة من القيام بالمحافظة على حقوقهم المعنوية والمادية وحل المشكلات التي يعانون منها ، وأبرزها : جشع معظم الناشرين ، وقدرتهم على ابتزاز المحقق بحيث ينالون معظم الربح ، ولا يبقى له إلاَّ اليسير . وكذلك « الروتين » القاتل في المؤسسات الرسمية وعدم ارتفاعها إلى مستوىٰ المسؤولية . ثم عدم وجود اللوائح القانونية الكافية لحفظ حقوق التأليف والتحقيق . وكثيراً ما يتولى إدارة هذه المؤسسات رجال لا علاقة لهم بالعلم ولا بالكتاب .

إن كثيراً من الكتَّاب يركزون على ضرورة إخراج المخطوطات إلى حيز المطبوعات محققة بصورة علمية (مع عدم الاتفاق على الشروط العلمية المطلوبة أو تفاصيل المنهج المراد اتباعه ليكون التحقيق علمياً) ، وهذا الهدف وإن كان مطلوباً ؛ لكنه ينبغي أن يسبق بدراسات تفصيلية لسائر المخطوطات ، وجدولتها حسب الفنون أولاً ، ثم حسب

الأهمية ثانياً ، مع بيان مدى خدمة كل مخطوطة للفن الذي أُلِّفت فيه . إن هذه الدراسات ينبغي أن تتقدم تحقيق المخطوطات ، لأنها الطريقة الوحيدة لترشيد عمل المحققين ، وإبعاد حركة التحقيق عن السقوط في المتاهات ، والتخبط بين ملايين المخطوطات ، وإخراج بعضها وإهمال بعضها الآخر دون انتقاء علمي مبني على دراسات عميقة متخصصة . .

إن المطلوب من المؤسسات المعنية بالمخطوطات ليس مجرد جمعها وإخراج عدد محدود منها إلى عالم المطبوعات ، بل السعي الحثيث للتعريف بالمخطوطات بواسطة العلماء المتخصصين بالفنون التي تتناولها المخطوطات ، وأن يتم ذلك بأقصى سرعة ممكنة ، وذلك لتكوين رؤية واضحة للتراث المخطوط تمكِّن من تحديد الأولويات ، وبذلك يتم ترشيد حركة تحقيق المخطوطات التي صارت تعاني من الفوضى وتفتقد حسن الانتقاء والتذوق العلمي السليم ، فإذا كانت لدينا ثلاثة ملايين مخطوطة كما تذهب بعض الإحصاءات الحديثة في شتى الفنون ؛ فينبغي أن ندرس أولاً ما إذا كانت تستحق كلها أن تبذل فيها الجهود للتحقيق والنشر .

إن المحقق قد يمكنه إخراج عشرة كتب في حياته ـ بالمتوسط ـ ومعنى ذلك أننا نحتاج إلى ثلاثمائة ألف محقق يمضون حياتهم لإخراج هذه المخطوطات !! وبالطبع فإننا لا نمتلك على صعيد العالم الإسلامي (١٪) من هذا العدد .

خطـــوات مقترحـــة

إن الطريقة المثلى تتمثل في اتباع الخطوات التالية :

١ - حصر المخطوطات في سائر مكتبات العالم ، والقيام بتصويرها بالتعاون بين المؤسسات المتخصصة ، بحيث تتقاسم العمل وفق خطة شاملة ، وأعتقد أن هذه الخطوة قد تم الشروع فيها ، وحققت نجاحاً كبيراً حيث تم جمع الكثير من المخطوطات أو صورها في مكتباتنا ومؤسساتنا المتخصصة ؛ والمقصود إنجاز هذه المرحلة ، والقيام بتبادل المخطوطات بين مؤسساتنا نفسها لتوفير نسخها المصورة بأعداد كبيرة تيسر الاطلاع عليها للباحثين والعلماء دون الحاجة إلى تكاليف السفر وجهده .

٢ - القيام بتصنيف المخطوطات وفق فنونها .

٣ - دعوة بعض العلماء والمتخصصين لدراستها ، ونظراً لأن معظمهم من الأساتذة الجامعيين فيمكن استضافتهم خلال إجازة الصيف ، أو التوسط لدى جامعاتهم لانتدابهم للعمل لدى المؤسسات المعنية بالتراث لمدة شهر أو شهرين ، ويكون عملهم : الاطلاع على المخطوطات ، وتقويمها ، والكتابة عنها ؛ وينشر تقويمهم بصورة أولية لإطلاع المتخصصين الآخرين عليها ، ثم تؤخذ ملاحظاتهم ، ويعاد النشر بالصورة الأخيرة للقراء . .

٤ - تشكل لجان عليا من كبار المحققين المتخصصين - في كل فن - لانتقاء المخطوطات المرشحة للتحقيق بناءً على الدراسات المذكورة في الفقرة الثالثة ، ويلاحظ فيها الأهمية العلمية للمخطوطة ، ومدىٰ حاجة مكتبة الفن نفسه إليها .

إن بعض المخطوطات لا يخدم نشرها مكتبة الفن ، إذ يوجد في المطبوعات ما يغني عنها ، بل إن بعضها مقتبس في كتب مطبوعة ، وبعضها مؤَلَّف من كتَّاب مغمورين لم يتمكنوا من تحقيق مستوى علمي مناسب في تخصصهم ، وبعضها فيه من النقص والمسح والسقوط والتحريف والتصحيف ما يتعذر معه إخراجه مصححاً والإفادة منه في دراسات الفن الذي تخصص فيه .

إن مثل هذه المخطوطات ينبغي إهمالها وعدم إضاعة الوقت والمال والجهد فيها ، لأن إحياء المخطوطات ليس هدفاً لذاته ، بل وسيلة لخدمة المعرفة ، فإذا كانت لا تضيف جديداً إلى معلوماتنا فالأولى إهمالها .

ويمكن أن تقوم هذه اللجان العليا بعمل هام آخر سوىٰ تحديد الأولويات ، وترشيد حركة التحقيق بانتقاء المخطوطات المرشحة للتحقيق ؛ وهو أن تُجدول الأفكار والمعلومات في كل علم بحيث تنشر موسوعة الفكر والعلوم الشاملة لكل جوانب التراث الفكرية والاجتماعية والعلمية مما يؤدي إلى تقويم دقيق للتراث وتحديد مجالات الإفادة منه بدقة ، وقد بادرت بعض المؤسسات العلمية لتبني هذا الاتجاه . . وهي

خطوة رائدة تستحق التقدير العميق . . من ذلك محاولة لتقويم الفكر التربوي العربي الإسلامي لعلاقته الوثيقة بمشاكلنا التربوية المعاصرة ، إذ لا شك أن دراسة شريحة تاريخية ابتداءً من جذور نشأة المجتمع ومروراً بعصور الازدهار الحضاري وانتهاءً بالواقع المتخلف مع دراسة نظرية التربية الإسلامية سيوقفنا على عمق مشاكلنا من ناحية ، وجذورها التأريخية ثم حلولها التربوية التأريخية ومدىٰ إمكان الإفادة منها ثانية في معالجة الواقع التربوي المعاصر من ناحية أخرىٰ .

الفصل الثاني

التـــــراث والمشكلات المعاصرة

إن إلقاء نظرة على بعض المشاكل التي تواجه المجتمع الإسلامي الحديث قد يعطي تصوراً أوضح للأهداف المتوخاة من مثل هذه الدراسات الجادة ؛ للإفادة من التراث في حل المشكلات المعاصرة في جوانب الحياة المختلفة :

[١] المشكلـــــة الاجتماعيـــــة :

إن النُذُر بتهدم الأسرة الإسلامية التي عاشت أربعة عشر قرناً لم تعد تخفى على أحد من العقلاء والمفكرين . . وإن صور الحياة الغربية

أخذت تستهوي الكثيرين وخاصة بعض الدارسين في الجامعات الغربية أو العاملين في الغرب ، ولا شك أن توعية الجماهير ـ وليس تنبيه المثقفين فقط والحوار معهم ـ بأهمية بقاء الأسرة وأخطار تمزقها يبدو ضرورياً لتدعيم وجودنا الاجتماعي .

وقد بات من الضروري التأكيد على انتكاسة العلاقات الاجتماعية في ظل الحضارة الغربية بصورة خطيرة ، خاصة في العقود الأخيرة من القرن العشرين ، حيث صارت الحرية الجنسية تخترق حتى الأعراف والقيم التي اتفق عليها البشر على اختلاف أديانهم وأعراقهم وبيئاتهم ، مما يدل على أنها أصول فطرية ، مثل : تحريم العلاقات الجنسية بين ذوي الأرحام القريبة . . . (فقد أوصت لجنة من القضاة والمحامين الإنكليز بتعديل قانون المخالفات والجنايات الجنسية بالشكل الذي لا يحرم العلاقة بين الأشقاء إذا كان الطرفان فوق سن الواحدة والعشرين !

وجاء في تقرير اللجنة التي شكلتها الحكومة لمراجعة القانون قولها : « إن تقديم الكبار في مثل هذه الحالات إلى المحاكمة ينطوي على قسوة لا ضرورة لها » .

ومن التوصيات الأخرىٰ أن اللجنة تقترح محاكمة الزوج بجناية هتك العرض ـ أو الاعتداء ـ إذا أصرَّ على ممارسة حقه الزوجي مع زوجته (المنفصل عنها) دون رضاها ! وتوصي اللجنة بزيادة الحد الأقصى

لعقوبة هتك العرض من سبع سنوات إلى السجن مدى الحياة[1] .

ولا شك أن سائر القرارات مبنية على مبدأ حرية الفرد بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرىٰ ، وحتى لو تمثلت في العودة إلى حياة الغابة حيث تنزو الحيوانات بعضها على بعض دون قانون !

إن هذه التوصيات لم تصدر عن رعاع يتسكعون في الطرقات ، ولا عن دور بغاء محترفة . . بل عن قضاة ومحامين تشبعت رؤوسهم بالفلسفة المادية وأفكارها ومعطياتها ؛ فارتُكِسُوا إلى هذا المستوىٰ في التفكير والتصور للإنسان وعلاقاته . . وما ذاك إلاَّ لبعدهم عن هدى الله وانقيادهم للأهواء :

﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ (النساء : ٢٧) .

وقد ظهرت نتائج هذه الشجرة الخبيثة سريعاً في مجتمعات الحضارة الغربية ؛ فأحدث الإحصاءات تقول : إن أكثر من ثلث مواليد عام ١٩٨٣م في نيويورك هم « أطفال غير شرعيين » أي أنهم ولدوا خارج نطاق الزواج ، وأكثرهم ولدوا لفتيات في التاسعة عشرة من العمر

---

(١) جريدة الشرق الأوسط ، السنة السادسة ، العدد [١٩٦٤] ١٣ رجب ١٤٠٤هـ (١٤ أبريل [نيسان] ١٩٨٤م) .

وما دونها ، وعددهم (١١٢٣٥٣) طفلاً أي ٣٧٪ من مجموع مواليد نيويورك !![2] .

دور التراث في مواجهة المشكلة الاجتماعية

والسؤال هو كيف يمكن أن نتخطىٰ ذلك كله ؟

وما هو دور التراث في مواجهة المشكلة الاجتماعية ؟ إذ يلزمنا أن نحدد بوضوح ما نريده من التراث ! :

نحن بحاجة إلى قيم أخلاقية ومثل عليا نرسي عليها قواعد حياتنا الاجتماعية ، ونضبط بها سلوك الأفراد والجماعات ، ولا شك أن الاعتماد على القيم السائدة ليس فيه كبير غناء ، إذ أن القناعات القائمة صارت تزعزعها أعاصير الحضارة الغربية وقيمها الفلسفية والاجتماعية دون أن تتمكن من الصمود . . ذلك لأن بعضها توارثته الأجيال دون فحص لجدواه وصلاحه ، ولا نستطيع إرجاع الكثير منها إلى أصول صحيحة مستمدة من القرآن أو السنة .

وما له أصل من الكتاب أو السنة شابته شوائب وعلقت به عوارض

---

(٢) جريدة الشرق الأوسط ، السنة السابعة ، العدد [٢٠٨٦] يوم الثلاثاء ١٧ ذو القعدة ١٤٠٤هـ (١٤ أغسطس [آب] ١٩٨٤م) .

شوهت صفاءه وأضعفت الثقة به . . من أجل ذلك لا بد من العودة إلى الجذور . .

وإذا كانت مصادرنا الموثقة من القرآن والسنة تعطينا نظرية خُلقية عميقة وشاملة وفعالة . . فإن التراث أدباً وتاريخاً واجتماعاً يقدم النماذج والتطبيقات التاريخية التي تعمق القيم الخلقية الإسلامية في قلوب الجماهير ، وتعطيها أبعادها التفصيلية المتنوعة ، على أن التراث يحتاج إلى عملية إفراز واختيار إذ فيه شوائب كثيرة ، وانحرافات عن التصور الصحيح نتيجة التفاعل بين أذواق الكتّاب والفكرة الإسلامية . . وعدم التزام العديد منهم بتصوير القيم القرآنية بدقة . .

إن الانحراف قد يرجع إلى عدم استيعاب تلك القيم ، ولكنه أحياناً يبدو انحرافاً مقصوداً مخططاً له من قبل القوىٰ المعادية للإسلام عبر الصراع التاريخي الطويل . . .

إن العودة إلى الجذور لإحياء القيم الأخلاقية صارت ضرورة حتمية لحياتنا المعاصرة ؛ قبل أن نفقد هويتنا الخُلُقية ونذوب وسط المادية ونظرياتها الوصفية . . إن « الحلال والحرام » لا يزالان يحكماننا في الكثير من جوانب حياتنا ؛ حتى بعد اختفاء علاقتهما بالدين في أذهان الملايين من المسلمين الذين لم يعد يربطهم بالإسلام سوىٰ أسمائهم العربية !!

إن صوت الضمير مهما بدا خافتاً لكنه لا يزال يؤثر في « اللاشعور »

ويؤدي إلى الإحجام عن الجريمة أحياناً أو التخفيف من أضرارها على الأقل أحياناً أخرىٰ .

[٢] المشكلـــة السياسيـــة :

كيف نرسخ معاني الوحدة بين أمة الإسلام ؟ وما أثر التراث في ذلك ؟

لقد اعتبرت الدراسات الاستشراقية ، وتابعها كثير من المؤرخين العرب ، قيام الدويلات في العصر العباسي الثاني سبباً لانتعاش الحركة الفكرية والحضارية في العالم الإسلامي ، وقد بولغ في ذلك ؛ إذ كيف يكون ضياع وحدة العالم الإسلامي السياسية عاملاً في تقدمه الحضاري ؛ حتى كأننا نرسب في عقول الأجيال الإسلامية أن التمزق السياسي له مزايا من حيث ندري أو لا ندري .

ألا ينبغي دراسة الأسباب وفق القوانين الاجتماعية وسنن نشأة الدول وارتقائها وضعفها ؟ الدورة التاريخية كما يشرحها ابن خلدون . . أو عوامل ازدهار الحضارة وضمورها وفق عوامل التحدي كما يطرحها توينبي . . وإذا كنّا لا نقبل هذين التفسيرين في تعليل تاريخ الحضارة الإسلامية . . فلماذا لا نعود إلى التصور الإسلامي المنبثق عن القرآن والسنة للتعرف على أسباب انهيار الحضارات التاريخية . . وتطبيق ذلك على الدولة العباسية ؟

إننا بحاجة إلى نظرية شاملة للتفسير التاريخي . . وقد آن الأوان

لدراسة تاريخنا دراسة علمية بعيدة عن الارتجال .

ما هي عوامل التوحيد في الدولة العباسية أيام قوتها ؟ وكيف نازعتها القوىٰ المحلية وانتهت إلى التجزئة ؟

ما هو الموقف النظري (المنبثق من الدين) مما أصاب الوحدة من أخطار التجزئة ؟ ما هي الأضرار التي نجمت ؟ وما الفوائد التي حصلت ، إن كان في التجزئة فوائد ؟

إنني أعتقد بأن التنظير في العصر العباسي كان عاجزاً عن مواكبة التقدم ، وأن تغذية الجمهور بمعاني الوحدة كان ضعيفاً . . بمعنى تخلف الفكر السياسي عن مواكبة الأحداث ، رغم تميزه عن الفكر السياسي الوضعي باستقائه من الوحي . . لكن المهم أن تسري معاني الوحي في القلوب والعقول ؛ فتتشرب الشعوب بالوحدة وتحافظ عليها من منطلق العقيدة ، وتقاوم عوامل التجزئة والتشرذم التي تقف وراءها الأنانية الفردية والجماعية بنزعاتها المحلية .

وبالطبع عند الكلام عن تخلف الفكر السياسي وخاصة في التنظيم فينبغي أن لا ننطلق من مفاهيم ونظم القرن العشرين . . وإنما تتم المقارنة مع الكيانات الأخرىٰ المعاصرة للعباسيين ، مثل : الدولة البيزنطية والصين . .

وأيضاً فإن التجربة الإنسانية لها دور كبير في استيعاب مفاهيم الوحي الإلٰهي من ناحية ، وفي إيجاد الوسائل الكفيلة باستمرار تأثير الوحي على الحياة من ناحية أخرىٰ .

ومن هنا فمن الخطأ في نقد الوضع السياسي في العصر العباسي أن يقاس بدول القرن العشرين مثلاً . فوسائل الاتصال والانضباط الآن أقوىٰ بكثير منها في العصور الذهبية الإسلامية ، والعصور الوسطى الأوروبية ، ولا يتنافى هذا القول مع خيرية القرون الأولى فهي خيرية التقوىٰ ، وتَمَثُّل روح الإسلام في الواقع بصورة لا يمكن بلوغها في الأعصر اللاحقة من حيث « النوعية » ؛ ولكن يمكن تحقيقها بنطاق كمي أوسع بحكم قوة وسائل الاتصال التي تقدمت كثيراً . . وبحكم نمو التجربة الإنسانية أو الرشد الإنساني المستمر ؛ والذي سيلتقي في نهاية المطاف مع الوحي الإلهي في جوانب كثيرة .

وعلى وجه التحديد : هل كان النظام الإداري (غير المركزي) سبباً في تنمية الحركات الانفصالية ؟

هل كانت الحرية الثقافية أو الاقتصادية للشعوب التي تضمها الدولة سبباً في ذلك ؟

هل أن ضعفَ العقيدة ومعاني التوحيد سبب في التمزق السياسي ؟

هل أدَّت القيادات الضعيفة في تكوينها الروحي والعقيدي دوراً في تمزيق الدولة ؟

هل كان للشعوبية وبقية التيارات المعارضة أثر في ذلك ؟

ما مدىٰ إخلاص الخلفاء والوزراء والولاة وأصحاب مراكز القوىٰ المتنفذين الآخرين لوحدة العالم الإسلامي ؟

ما هو موقف الفقهاء الذين كانوا يُنَظِّرون للدولة الإسلامية ؟

ما هي الأفكار التي سادت الحياة السياسية والتي غذتها المدارس الفكرية ومؤسسات التعليم المتنوعة من كتاتيب ومساجد ومدارس على مستويات متباينة ؟

ما هي وسائل الاتصال المتاحة لتثقيف الناس ونشر الوعي ومفاهيم التوحيد والوحدة ؟

ما دور تخلف الوعي في تمزيق وحدة العالم الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري ؟ وما دور التباين في المستوىٰ الاقتصادي لأقاليم العالم الإسلامي في تفتيت الوحدة السياسية ؟

وما دور القوىٰ المحلية ؟ وما دور القوىٰ الخارجية (الروم مثلاً) في تغذية الحركات الداخلية المقاومة للوحدة وللإسلام معاً ؟

وما هي الصيغة المناسبة لإعادة وحدة العالم الإسلامي الروحية والفكرية والسياسية والاقتصادية من خلال دراسة الوحي ودراسة الواقع التأريخي ؟

ماذا يقدم التراث ودراساته لعالم اليوم ـ وللعالم الإسلامي المعاصر بالذات ـ في حقل الفكر والتجربة التأريخية ؟

لعل من أهم ما يظنه العديد من المؤرخين من إيجابيات ظهور الدويلات هو نمو الحركة الفكرية ؛ بسبب التنافس على العلماء وتقديم الإغراء المادي لهم للالتحاق بهذه الدويلة أو تلك !

ولكن هل كان التمزق السياسي هو الوسيلة الوحيدة لإنعاش الفكر ؟

وهل تخلف الفكر عندما كانت الدولة واحدة في العصر الذهبي ؟ وهل ظهرت مدارس الفقه المتنوعة إلاَّ في العصر الذهبي ؟

وهذا الازدهار ينطبق على مجالات الحركة الفكرية الأخرىٰ .

إن ما حدث من ازدهار فكري في القرن الرابع الهجري هو ثمرة طبيعية للتطور التاريخي للحركة الفكرية ، وكان يمكن أن يكون الازدهار أعظم لو صاحبته الوحدة السياسية ، فلا يمكن لأجواء الفتن والحروب الداخلية وما تتطلب من نفقات اقتصادية وبشرية أن تدفع للازدهار الفكري . . إن الإسلام يوحد الطاقات الداخلية ويصَرِّفها في حركة الجهاد . .

فهل كان لضعف حركة الجهاد أثر في نمو الحركات الانفصالية ؟

ربما لم يكن استنهاض الأمة يتم بالقدر الكافي لمواجهة العالم الخارجي ؛ ويرجع ذلك إلى غياب الوعي أو ضعفه أو عجز وسائل الاتصال المتاحة آنذاك عن توجيه الأمة في العالم الإسلامي الفسيح . .

إن الوحدة الإسلامية تقوم أساساً على بناء شخصية المواطن المسلم ، وتعميق انتمائه للأمة الإسلامية ، وتجاوزه للوطنية والإقليمية والقومية وتمايزه عن الأممية والعالمية .

والتعليم هو الوسيلة المثلى لصياغة هذه الشخصية ، وإذا كان التعليم في المراحل الابتدائية والثانوية يغرس الإرث الثقافي للأمة ؛ فإن التعليم الجامعي يبلور ذلك ويفلسفه بسبب الارتقاء العقلي للطالب وازدياد قدرته على التجريد .

إن المطلوب من الجامعات الإسلامية إذَنْ أن تُقَوِّي في نفوس طلابها الانتماء لأمة الإسلام ، وَتُكَوِّن شخصياتهم وثقافاتهم وفقاً للعقيدة والشريعة . .

وقد كان التعليم الإسلامي في حلقات المساجد وبيوت العلماء في القرون الخمسة الأولى للهجرة ناجحاً في هذه المهمة ؛ فرسخ العقيدة والشريعة ونشر اللغة العربية في ما بين وراء النهر وطنجة . . . فهل تقوىٰ الجامعات الإسلامية ـ وإمكاناتها أكبر من إمكانات العلماء في القرون الأولى . . والتحديات أمامها أخطر أيضاً ـ هل تقوىٰ على صياغة الشخصية وتحقيق الانتماء إلى الأمة الإسلامية ؟

[٣] المشكلـــــة التشريعيـــــة :

نحن بحاجة إلى تحديد دقيق لمنهج الاستنباط الفقهي المعاصر ؛ وهل نسعىٰ إلى البناء على المدارس الفقهية التي تبلورت في القرون الثلاثة الأولى ، وتضخم نتاجها في عصور الاجتهاد حتى أقفل باب الاجتهاد . . . أم نتحرر من تلك المدارس ونرتبط بمصادر التشريع الأولى من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ؛ معالجين مشاكلنا على ضوئها ، متخطين جهود المدارس الفقهية الأولى بحكم الفاصل الزمني بينها وبين عصرنا ؛ حيث كان وقف الاجتهاد سبباً لهذا الانقطاع ؟! . .

إن ثمة أصواتاً قوية تنادي بالعودة إلى الكتاب والسنة والأخذ عنهما مع

الإفادة من مناهج السلف في الاستنباط والفهم ، وعدم إهمال التراث الفقهي العظيم ؛ بل الإفادة منه بمرونة دون أن يحل محل الكتاب والسنَّة ، ودون أن يقف موازياً لهما في قوة الإلزام ، وهذه الدعوة تحتاج إلى أن تقترن بدعوة موازية ، وهي : التحذير من الاجتهاد في دين الله دون علم ، ودون ضوابط أصولية ، ودون استكمال العدة اللازمة للمجتهد القادر على الترجيح ، فإن العودة إلى ينابيع الشريعة والاستقاء منها مباشرة دون ضوابط دقيقة وكفاءة عالية يؤدي إلى الفوضى الفكرية والدينية والفقهية ؛ ويملأ مجتمعنا بالمفتين والمجتهدين المتعارضين في أقوالهم واجتهاداتهم ؛ وقد بدت طلائع هذه الفوضى في بعض المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، حيث فقد الشباب الثقة بعلماء بلدهم ؛ فمضوا إلى القرآن والسنة يسعون إلى فهمهما ، والاستنباط منهما مباشرة دون معرفة بأصول الفقه ومصطلح الحديث ، ودون غوص في علوم اللغة العربية ومعرفة أسرارها البلاغية ، ومنظومتها النحوية .

ونظراً لبعدنا عن السليقة وتطور لغتنا وأساليب كتابتنا الحديثة ، ولصعوبة بناء الثقافة اللغوية والشرعية التي تمكن من فهم القرآن الكريم والسنة النبوية دون الاسترشاد بالمتخصصين من العلماء ؛ مع سعة دائرة السنة وصعوبة الإحاطة بها ، ووقوع الضعيف في كثير من دواوينها ، ووجود الناسخ والمنسوخ فيها ، وبعض الأحاديث المطلقة تقيدها أحاديث أخرىٰ ، وبعضها ظاهرها العموم لكن أحاديث أخرىٰ تخصصها ، ولذلك فإن ثمة صعوبات بالغة تواجه محاولات الأخذ المباشر من الكتاب والسنة دون ترشيد من العلماء بل ودون إفادة أحياناً

من التراث الفقهي الذي يوضح فهوم العلماء والمجتهدين الأفذاذ لهذه الآيات والأحاديث في عصور الاجتهاد[٣] .

إن بعضنا صار يتوهم في تصوره للإسلام بسبب انكبابه سنوات طويلة على أحاديث جزئية معينة من جزئيات العقيدة أو الشريعة فيقصر الإسلام عليها ، فالذي يبحث في أحاديث الوضوء سنين طويلة متى يدخل في الصلاة ؟ والذي يمضي حياته في دراسة العقيدة متى يدرس الشريعة ؟ والذي يدرس أحكام العبادة طيلة وقته متى يعرف أحكام المعاملة ؟

إن الفهم القاصر والتشويش الظاهر أثر من آثار التلقي المباشر من الكتاب والسنة دون ترشيد من العلماء . . وليس معنى ذلك النكوص عن أصل المنهج ، وإنما التنبيه على أهمية إعداد العدة والتسلح بالعلوم اللازمة قبل أن يتحول طلبة الجامعات إلى مفتين وفقهاء ومجتهدين ؛ ففي ذلك جرأة عظيمة على الله ودينه .

وكان معظم علماء السلف يتورع عن الفتيا مع امتلاك الأدوات العلمية خوفاً من الخطأ ؛ فكيف بمن لا يمتلك شيئاً من تلك الأدوات بل لا يمتلك أحياناً سوىٰ صحيح البخاري أو الكتب الستة ؟ ويرىٰ نفسه أهلاً للاجتهاد والترجيح بين الآراء وإصدار الفتاوىٰ ! !

إن الدراسة المتأنية لواقعنا الثقافي تؤكد على حالات التمزق والتمرد

---

(٣) بدأ إقفال أبواب الاجتهاد في أواخر القرن الرابع الهجري ، واستمر حتى بداية القرن الرابع عشر الهجري ، ولكن عصور الجمود لم تخل نهائياً من المجتهدين ، مثل : ابن تيمية رحمه الله (ت ٧٢٨هـ) .

على واقع الثقافة وخاصة في الجوانب الإسلامية ، ولن تستقر النفوس وترسو سفينة الأجيال إلاّ إذا ظهر علماء يتسمون بسعة الدائرة العلمية ، وعمق الوعي الحضاري والورع والإخلاص لله تعالى ليحتضنوا الأجيال الصاعدة ، ويوثقوا صلتهم بها ، ويأخذوا بأيديها إلى منارات الإسلام ومعالم الحق والإيمان .

وهنا يقدم التراث صوراً دقيقة لوسائل إعداد العلماء ، ولمناهج العلوم الإسلامية ، ولأهداف التعليم وأساليبه بشكل نظريات شمولية في المؤلفات المتخصصة ، أو مؤسسات تطبيقية تمثلت في المدارس والجامعات الإسلامية ، وقبل ذلك في حلقات العلماء في المساجد ، ثم بشكل نماذج من العلماء من عصور مختلفة قاموا بمسؤوليتهم في طرح الحلول الشرعية « الأحكام الفقهية » لمشاكل مجتمعاتهم في عصور التاريخ الإسلامي المتعاقبة .

[٤] المشكلـــة الثقافيـــة :

(أ) انحـــراف المنهج الاستشراقي في الدراسات الإسـلامية والدعوة إلى إحياء المنهج الإسلامي في البحـــث العلمي :

إن حركة الإحياء في الغرب بدأت من الداخل ، وتشكلت أبعادها وأهدافها ، وتم تنفيذها على يد الغربيين وفق مناهج محددة وضعت لهذا الغرض .

أما إحياء التراث ـ بمعناه الضيق المتصل بنشر المصادر الكلاسيكية للثقافة العربية الإسلامية ـ فبدأ على يد الاستشراق الذي كانت له أهداف خاصة في التعرف على شعوب المنطقة تعرفاً صحيحاً ينفذ إلى الجذور ، ويتابع الفروع ، ثم يتدخل في التخطيط والتوجيه .

لقد استخدم المستشرقون منهج البحث الغربي في دراسة الإسلام قرآناً وحديثاً وحضارة وتاريخاً ، وكان منهج البحث في الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل) قد تبلور على يد العلماء الألمان خاصة مُمثَّلاً بالمنهج النقدي «Criticism Method» ثم ساد بين علماء الغرب جميعاً فأعملوا مباضعهم في تراثنا مطبقين عليه منهجهم ، وصدروه إلينا بشكل دراسات ، ظاهرها : العلم والموضوعية والتجرد ، وباطنها : التعسف والجهل والتعصب ، وأول ذلك التعسف تطبيق منهجٍ وضع ليتحكم في تراث صاغته يد البشر في كتاب هو من وحي السماء لم تصغه أيدي

الأتباع ، وفي تراث يختلف شكلاً ومضموناً وروحاً عن تراث الغرب .

وماذا سيحدث لو عكسنا الأمر وحكَّمنا مقاييس منهجنا الإسلامي في تراث الغرب ؟ ماذا لو اعتمدنا شروط المحدِّثين في قبول الرواية ، بأن تكون من نقل العدل الضابط إلى منتهاه ؟ ماذا لو حكَّمنا هذا المقياس في التاريخ الأوروبي ؟ هل يسلم ثمة شيء ؟

وللإنصاف أطرح السؤال بنطاق أضيق ، فأقول : ماذا لو حكَّمنا هذا المقياس في دراسة الكتب الدينية ، كالتوراة والإنجيل والتلمود (شرح التوراة) ؟؟!

وبالطبع فإن هذا كان سيحدث لو استمر زمام الحضارة بيد المسلمين ، ولم ينتكسوا حضارياً منذ قرون طويلة .

إن أية قراءة في « المفصل » لابن حزم أو « هداية الحيارىٰ » لابن القيم ؛ ستوضح أن إعمال المنهج الإسلامي في دراسة عقائد وأديان النصارىٰ واليهود ستهدم معظم جوانبها وتشكك بها دون تعسف ولا تعصب .

(ب) الدعــــوة إلى إحياء منهج البحث الإسلامي :

إننا مدعوون لإحياء منهج البحث الإسلامي والعمل على تطويره ؛ ذلك المنهج الذي انبثق عن الوحي الإلٰهي ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴾ (الإسراء : ٣٦) . ففي هذه الآية يبين الله عز وجل

مسؤولية حواس الإنسان عن العلم ، وينهاه عن قول ما لا يعلم ، وقد ذهب المفسرون إلى حصر حدود المسؤولية في نطاق العلاقات الاجتماعية ، فذكروا النهي عن رمي الناس بمجرد الظن والتوهم والشهادة عليهم بغير الحق ، فذلك معنى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْفُ ﴾ عندهم ؛ لأن أصل القَفْوِ : البهتان .

ولكن معنى الآية يتسع لأكثر من نطاق العلاقات الاجتماعية ، فنهْيُ الإنسان عن قول ما لا يعلم هو أمر له بالسعي في التحقق وطلب البرهان والدليل كما في قوله تعالى :

﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية : ٢٤) ، وقوله :

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة : ١١١ - النمل : ٦٤) . فالجهل يفضي إلى الكذب كما في قوله تعالى :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (يونس : ٣٩) . من أجل ذلك رفع الله قدر العلماء فقال :

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة : ١١) .

وقد أدَّت هذه التوجيهات القرآنية إلى توصل المسلمين في القرون الأولى الزاهرة إلى مناهج دقيقة للبحث العلمي ، فاكتشفوا العلاقات السببية ، والقوانين الطبيعية ، والعلوم الرياضية عن طريق اتباع منهج

البحث التجريبي الذي سبقوا الأوروبيين إليه بعشرة قرون ؛ ولكنهم للأسف تخلوا عنه بعد ذلك ، في حين أخذه عنهم الأوروبيون منذ مطلع عصر النهضة الأوروبية ، وقاموا بالإضافة إليه وتطويره حتى أثمر النتائج العلمية والصناعية الضخمة التي تتسم بها المدنية الغربية المعاصرة .

كيــــف ولد الأسلوب العلمي ؟

يقول المفكر البريطاني « برتراند رسل » : « . . . إن الأسلوب العلمي ولد من زواج مذهبين فكريين أتت بكل واحد منهما إحدىٰ الحضارات العظيمة ، أولهمـــا : تنظير الإغريق ، وثـانيهمـــا : اختبار العرب . . .

فالإغريق هم الذين أبدعوا ما سميناه بالتنظير أي بناء الفرضيات ، وتخيل النظريات لتفسير واقع العلم الطبيعي ، فهم مثلاً تخيلوا أن المادة مكونة من أجزاء منفصلة ، كل جزء منها صغير جداً لا يقبل الانقسام (ATOM) ، وسماه العرب بعدهم بالجوهر الفرد ، ونسميه نحن اليوم بالذرة .

أما العرب فقد كانوا سادة التجريب والاختبار ، يقيسون ويفحصون ويشاهدون ويدوِّنون ، إلاَّ أن كل مذهب من هذين المذهبين يبقى وحده عاجزاً عن أن يلد الأسلوب العلمي ؛ فبناء النظريات دون إخضاعها لمحك التجربة ، وعرضها على حكم الاختبار يبقى لهواً فكرياً عقيماً ؛

قد يرضي المفكرين والمتأملين ، ولكنه لا يرسم صورة صحيحة للطبيعة ، ولا يأمل أن يؤثر فيها ويهيمن عليها . والاختبار غير المنظم ، والذي لا يهتدي بهدي نظرية تقوده وتدلُّه على الطريق ، يبقى مضطرباً لا يخلص بنتيجة شاملة ولا يكشف حقائق أساسية .

وعندما تزاوج هذان المذهبان في أوروبا ، وفي عصر النهضة ، ولد من تزاوجهما الأسلوب العلمي الذي قاعدتاه الرئيستان :

النظريـــــة : التي يفترضها ليفسر بها شيئاً من ظواهر الطبيعة .

والاختبــــار : الذي تخضع له هذه النظرية لينقدها ويكشف عيوبها .

ويبقى العلمي راضياً عن النظرية ما صدقت لحكم الاختبار ، واتفقت مع تنبؤاتها نتائج التجربة »[٤] .

---

(٤) استراتيجية تطوير التربية العربية ، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : ص ١٩٢ .

القرآن الكريم ومنهج البحث التجريبي

لقد أقر « برتراند رسل » بأن العرب كانوا سادة التجريب ، ولكنه لم يفطن إلى أنهم فعلوا ذلك في ظل التنظير القرآني ؛ حيث إن القرآن الكريم هو الذي لفت نظر المسلمين إلى الطبيعة ، ودعاهم للكشف عن أسرارها عن طريق الاختبار والتجريب باستخدام العقل والحواس ؛ موضحاً أن الطبيعة مسخرة للإنسان الذي من واجبه التعرف على قوانينها للإفادة من هذا التسخير ، ومن ثم الحصول على القوة اللازمة لإعلاء شأن العقيدة :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا ٱسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ . . . ﴾ (الأنفال : ٦٠) ، وجاءت كلمة ﴿قوة﴾ نَكِرة لتعم كل أنواع القوىٰ المادية والمعنوية .

ولم يقتصر جهد علماء المسلمين على اكتشاف منهج البحث التجريبي وتطبيقه في نطاق العلوم الطبيعية والرياضية ، بل وضعوا مناهج أخرىٰ للبحث في العلوم الشرعية والاجتماعية ، فكان لعلماء أصول الفقه منهج متميز يقوم على الاستقراء والاستدلال معاً ، يتعاملون وفقه مع النصوص الشرعية مجتهدين للوصول إلى الأحكام المتنوعة للمشاكل المتجددة ؛ وهو منهج فريد في دقته وشموله .

كما كان لعلماء الحديث منهج للتعامل مع الرواية الحديثية سنداً ومتناً ، تلتقي به معظم منجزات منهج البحث التاريخي الغربي ، مما يدل

على تأثرها به ، خاصة وأن المحدثين سبقوا في منهجهم بـ « علوم الحديث » منهج البحث التاريخي الغربي ، بما يزيد على عشرة قرون .

إن من أبرز عوامل تخلف المسلمين في العصور المتأخرة من تاريخهم : تخليهم عن مناهج البحث العلمي التي يعتبرون رواداً في ميادينها ؛ لكنهم لم يقطفوا ثمراتها كاملة حيث أسلموهـا للغرب ليقتطفها . . .

وبعـــد فلا بد من قراءة جديدة متأملة لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴾ (الإسراء : ٣٦) ، وفي ضوء قوله عليه الصلاة والسلام « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » [رواه الترمذي] .

ولا بد بعد ذلك من إلقاء الضوء على الجهد المقابل الذي بذله علماء الغرب في تطوير ما اقتبسوه من المسلمين من مناهج البحث العلمي التجريبية والاجتماعية ، وما أحاط بمنهج البحث الغربي من المؤثرات الحضارية والفكرية والتأريخية ، مما أدَّىٰ إلى انحرافه في التطبيق عن « الموضوعية » خاصة في دراسة « تراث الإسلام » .

بالإضافة إلى انحرافه عن الأصل الإسلامي المقتبس بسبب المؤثرات الفكرية المتصلة بالفلسفات المادية ، وإنكار الألوهية والنبوة والوحي والروح ، وكل ما لا يقع تحت دائرة الحس ؛ وهو انحراف خطير جرَّ إلى

تحديد مصادر المعرفة بصورة ضيقة .

وقد يتصور بعضهم أن إنكار عالم الغيب هو سبب تفوق المنهج الغربي وتقدم العلوم والمدنية عند الغربيين ، ولكن النظرة الفاحصة ستوضح أن التزام المنهج الغربي بطريقة الاستقراء التي اتبعها العلماء المسلمون وتخليهم عن منهج الاستنباط والقياس اليوناني هو سبب ازدهار الحركة العلمية في الغرب ؛ خاصة في مجال العلوم الطبيعية والرياضيات وتطبيقاتها العملية .

تطـــور الفكـــر الغربي

إن فكر الغرب وفلسفاته تشكلا ضمن مؤثرات تاريخية وحضارية بعيدة الجذور ، ومن خلال التطور الطويل انتقل الغرب من الإيمان بآلهة اليونان والرومان الوثنية إلى الإيمان النصراني ضمن المفاهيم الكنسية والنظام الكنسي (الإكليروس) ، ثم أخيراً إلى الإلحاد والمبالغة في الاتجاه العقلي في القرن التاسع عشر الميلادي ؛ مما أدَّىٰ إلى التفلت من الكنيسة ومعتقداتها الدينية ؛ حيث اعتبرت حليفة للإقطاع والرجعية ، ومخدرة للشعوب ، ومناقضة للعلم ، فظهرت « العلمانية » والنزعة غير الدينية التي انحرف في أحضانها منهج البحث الغربي عن أصوله الإسلامية ، فلم يعد يعترف بعالم الغيب أو ما وراء الطبيعة « الميتافيزيقية » وإنما يعترف بالعالم المادي المحسوس وحده .

وهكذا صارت مختبرات علوم الحيوان التي تدرس الخصائص البيولوجية والسلوكية على الحيوانات تصدر نتائجها لتطبق على الإنسان من قبل علماء النفس والاجتماع والتاريخ ؛ لأن الإنسان لا يعدو أن يكون حيواناً راقياً حسب نظرية « داروين » ولا يعدو في السلوك على تلبية حاجاته الغريزية وباللذات الجنسية حسب نظرية « فرويد » . .

عجــز منهج البحث الغربي وانحرافه

وهكذا عجز منهج البحث الغربي بعد انحرافه عن احتواء الإنسان والنظرة الشمولية إليه ؛ من حيث إنه روح ونفس وعقل . . فهذه الجوانب لا تخضع للاختبار ، كما أن المشاعر ودوافع السلوك لا يمكن حصر تفسيرها بالمقاييس المادية .

وقد ظهرت نتيجة ذلك النظريات ذات البعد الواحد في التفسير التاريخي ؛ مثل : التفسير الاقتصادي الذي تبنته الماركسية ، والتفسير الحضاري الذي يعتمد على وجود التحدي وقدرة الإنسان على الاستجابة له في تعليل ظهور الحضارات ، والتفسير الجغرافي الذي يعتمد أثر البيئة والمناخ . . وهكذا لم تعد النظرة إلى الإنسان تتسم بالشمول الذي امتاز به الإسلام .

ومن عوامل انحراف المنهج الغربي في التطبيق : نزعة الاستعلاء عند الغربيين التي جعلتهم لا يعطون الحضارات الأخرىٰ تقويماً موضوعياً ،

بل جعلوا الحضارة الغربية أساساً لمحاكمة الحضارات وقياسها ؛ مما جعلهم لا يعترفون - إلاَّ اليسير من علمائهم - بدور الحضارة الإسلامية في بناء حضارة الغرب ، بل إنهم أعملوا مباضعهم في تشريح تراث الإسلام لإبراز السلبيات وإغفال الإيجابيات ؛ مُلْقين بثقلهم الأكاديمي الاستشراقي لإعطاء قيمة بخسة لتراثنا ودورنا الحضاري ، وبالتالي لتشويه الإسلام عقيدة وشريعة وتاريخاً وحضارة لحساب الاستعلاء الغربي .

موقف علماء المسلمين من منهج البحث الغربي الآن

إن هذا كله يقتضي من العلماء المسلمين أن يراجعوا موقفهم من منهج البحث الغربي فلا يستسلمون أمامه ، ولا يعتبرونه مجرد منهج محايد ، وذلك للمؤثرات الفكرية التي أحاطت به ، فالإلحاد لن يسمح بالكلام عن المشيئة الإلهية ، بل سيلغي مدلول قوله تعالى : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، كما أن المادية لن تسمح بتقويم الدين وآثاره الروحية والخلقية ، وكذلك فإن روح الاستعلاء تمنع التقويم الموضوعي .

إن الإفادة من منهج البحث الغربي ينبغي أن تتم بعد إعادته إلى أصوله الإسلامية وتحكيمها فيه ، وتقويم انحرافاته من خلالها . . أو بتعبير آخر لا بد لنا من العودة إلى منهج البحث الإسلامي الأصيل ، وتطويره مستفيدين من منهج البحث الغربي فيما يندرج تحت قواعد الإسلام ومنهجه .

إن منهج البحث العلمي الإسلامي يرتكز على الإيمان بالله وعالم الغيب والشهادة ، ويقر الإرادة الإلٰهية ، ويعترف بالجوانب الروحية في الإنسان ، ويقوم على الموازنة بين المؤثرات الروحية والاقتصادية والمناخية والحضارية دون أن يلتزم بعداً واحداً .

وهو بعد ذلك يراعي الفطرة ، والغرائز ، ويتسم بالموضوعية والبعد عن العصبية والاستعلاء العنصري ، وهذه السمات تميزه عن منهج البحث الغربي ، وتجعله يتفوق عليه .

إن الدعوة إلى إحياء المنهج الإسلامي في البحث العلمي لا بد أن تلقى صدى طيباً لدى الباحثين المسلمين ، وبذلك يكونون ورثة للأنبياء كما في حديث الرسول ﷺ : « وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم » [رواه أبو داود والترمذي] ، و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة » [رواه مسلم] .

(ج) نحـــو منطق إســـلامي حديث :

ولنأخذ جانباً آخر يتعلق بحياتنا الثقافية ، ما هي نظرية المعرفة التي ينبغي أن تسود في حياتنا الفكرية المعاصرة ؟

هل نخضع للتصور الغربي المحدود والذي يولد الثنائية في حياتنا ؛ فنصبح علميين علمانيين في الجامعات ومؤمنين متدينين في الجوامع ؟

كيف نتخلص من الازدواجية والفِصام في حياتنا الفكرية ؟

لا يمكن أن ننكر أثر الضوابط العقلية الكلية ، والنظرة الشاملة إلى

الأشياء والأحداث في ترشيد الحركة العلمية والفنون الصناعية ، إذ لا بد أن تتقدم النظرية : الكشف عن الجديد والوصول إلى حقائق المعرفة .

وقد وضع أرسطو وفلاسفة اليونان المنطق الصوري لضبط مسار الفكر ضمن إطار الفلسفة اليونانية ذات الطابع الوثني والمادي .

وأقام المسلمون حضارتهم في العصور الذهبية ضمن إطار تصوري وعقلي استمدوه من الكتاب والسنَّة ، وتبلور بشكل قواعد عقلية استخدمها النظار والفقهاء والأصوليون ، وانحرف بها بعض من عرفوا بـ « فلاسفة الإسلام » كـ « الفارابي » و « ابن سينا » و « ابن رشد » الذين اغترفوا من فلسفة اليونان ومنطقهم أكثر مما استمدوا من القرآن والسنة . . ولكن المنهج العقلي للفقهاء والأصوليين استمر ينمو حتى عصر ابن تيمية الذي قام بحركة نقدية رائعة لتصحيح مسيرة الفكر الإسلامي ؛ مستهدفاً تخليصه من انحرافات الفلاسفة والمتكلمين ؛ راداً قواعده العقلية إلى الكتاب والسنة ، لكنه لم يمتنع من الإفادة من أية قاعدة عقلية لا تخالفهما أياً كان قائلها ، فالإسلام دين الفطرة ، والعقل وقواعده من الفطرة ، وما أنتجه العقل من قواعد لتنظيم الفكر يمكن أن ينضوي كثير منه تحت إطار التصور الإسلامي الذي يحدده القرآن والسنة ؛ بحيث يشكلان سياجاً لحماية الفكر من الانحراف عن الفطرة .

وبالتالي فنحن بحاجة إلى استيحاء التراث لتكوين المنظومة العقلية لمنهجنا الفكري ؛ مستمدين ذلك من الكتاب والسنَّة ومناهج الأصوليين والفقهاء . .

إن إيجاد هذه المنظومة البديلة لعلم المنطق صارت ضرورة حتمية ؛ للتلازم الواضح بين المنطق والتكنولوجيا المعاصرة ، ويبرز ذلك بوضوح في العقول الإلكترونية التي لا يمكن أن تعمل دون منظومة عقلية فعَّالة .

إن رفض المنطق الغربي بسبب عوارضه الوثنية وجذوره المادية وتفلُّته من السياج الديني يحتاج إلى منظومة عقلية بديلة ، وأحسب أن أساسها موجود في التراث متمثلاً بصورة خاصة في أصول الفقه ، وفي منهج الفقهاء ، خاصة ابن تيمية في (نقض المنطق) ، و (الرد على المنطقيين) ، و (مجموعة الفتاوىٰ) .

والحق أننا بحاجة في هذا الوقت إلى ابن تيمية القرن الخامس عشر الهجري يصوغ لنا المنظومة العقلية الإسلامية .

[٥] المشكلـــــة اللغويــــــة :

اللغـــة هي وعاء الفكر والحضارة ، فبدونها لا يمكن التعبير عن المعاني ، وتعتبر إحدىٰ المقومات الرئيسة التي تكوِّن شخصية الأمة ، وتعطيها ملامحها وهويتها ، وترسي دعائم التفاهم بين أبنائها وتحقق وحدتها ؛ وكلما ارتقت لغة الأمة ونمت واتسعت مفرداتها وكثر الاشتقاق والتوليد فيها كلما دلَّت على حيوية الأمة وتحضُّرها ، ومن هنا حظيت لغة الأمم الراقية باهتمام بالغ ، فلها مجامعها العريقة ، ومعاجمها المتطورة النامية ، ودورياتها المستمرة التي توضح ما استجد فيها وما طرأ عليها ؛ فثمة ألفاظ تموت بعد قرن أو أكثر من حياة اللغة ، وثمة ألفاظ تولد ، وعلى المدىٰ البعيد تتسع الهوة بين اللغة وأصولها القديمة .

ومن المعلوم أن اللغة الإنجليزية المعاصرة تختلف كثيراً عن لغة « شكسبير » ، كما أن لغة « شكسبير » تختلف عن أصولها اللاتينية اختلافاً عظيماً . . .

واللغة العربية احتلت مكاناً عظيماً في العصر الجاهلي ؛ حيث تميز العرب باهتمامهم الكبير بالشعر والخطابة ، وعقدوا لهما الأسواق الأدبية ، فكان للكلمة قيمة كبيرة ، لكن العرب لم يكونوا يدونون ذلك .

ونزل القرآن الكريم بلغة قريش العربية ، فأعطى العربية فرصة عظمىٰ لتتقارب لغاتها وتتبلور في لغة القرآن . . لغة الشمال . . كما أعطاها

فرصة أعظم للحفاظ على أصولها حيث يحتوي القرآن الكريم على ٣٠٪ من الجذور التي يحتويها كتاب (الصحاح) للجوهري[٥] سواء أكانت حيَّة أم ميتة ، وترتفع النسبة بالطبع إذا أخذت بالنسبة للجذور المستعملة فقط من صحاح الجوهري ؛ وبالتالي فقد أعطى الحياة الدائمة لهذه الجذور في حين فقدت العديد من الجذور الأخرىٰ حياتها مع تعاقب القرون . .

وارتفع الإسلام بلغة العرب إلى لغة الإدارة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والعلوم بعد أن كانت لغة الأدب والثقافة فحسب . . وذلك عندما استعملت الدولة الإسلامية اللغة العربية في عصر الراشدين والأمويين والعباسيين . .

ودخلت أمم أعجمية في الإسلام واتسعت دائرة انتشار العربية ؛ تبعاً لانتشار الإسلام الذي يحتاج التفقه فيه وفهمه إلى معرفة اللغة العربية . . وزادت خصوبة العربية واتسع نموها . . وتعكس المعاجم اللغوية التي أُلِّفت في فترات متعاقبة مقدار النمو اللغوي عبر العصور .

فقد حوىٰ كتاب (الصحاح) للجوهري (ت ٣٩٣هـ) (٥٦١٨) جذراً .

---

(٥) من محاضرة للدكتور علي حلمي موسى ، وقد أوضح المحاضر أن نسبة ما يستخدمه الأديب في مؤلفاته من اللغة التي يكتب بها لا تتجاوز ٥٪ من المفردات التي يكررها ، في حين استخدم القرآن ربع ألفاظه لمرة واحدة ، فإذا أخذنا في الاعتبار مجمل ألفاظ القرآن (٥٢,٠٠٠) لفظ أدركنا أوجهاً للإعجاز القرآني .

في حين حوى (لسان العرب) لابن منظور (ت ٧١١هـ) (٩٢٧٣) جذراً ، أما (تاج العروس) للزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) فإنه حوى (١١٩٧٨) جذراً أي بزيادة (٢٥٪) على ما في (لسان العرب) و (٥٠٪) على ما في (الصحاح) للجوهري ، أي أن (تاج العروس) تفرَّد بربع اللغة تقريباً[٦] ، ثم لم تُجْرَ محاولة جادة شاملة للتأليف المعجمي واحتواء المفردات الجديدة حتى أواسط القرن العشرين عندما ظهر المعجم الوسيط ، وتحركت المجامع العلمية اللغوية العربية لتدارك الأخطار المحدقة بلغتنا نتيجة التحديات المعاصرة . . فما يستجد من ألفاظ الحضارة في العالم قدر هائل يصل في المتوسط إلى خمسين كلمة جديدة تولد في كل يوم ، وتتطلب اجتهاداً من أصحاب اللغة يسيغها ويطوعها للغة العربية[٧] ، وإلاَّ انعزلت اللغة العربية عن عالم الحضارة والفكر ؛ رغم مرونتها العظيمة وقدرتها الهائلة على الاشتقاق والتوليد منها ، وما ذلك إلاَّ لعجز أبنائها عن مواكبة الحياة . .

---

(٦) الدكتور علي حلمي موسى ، والدكتور عبد الصبور شاهين : دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس « باستخدام الكمبيوتر » ص ١٠ .

(٧) الدكتور علي حلمي والدكتور عبد الصبور شاهين : دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس ص ٢٨ بالاعتماد على إحصائية المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي التابع لجامعة الدول العربية .

أهمية مراقبة تطور اللغة العربيـة

إن ترك اللغة العربية تتطور مثل بقية اللغات العالمية بانسياب ، ودون الاهتمام بالمحافظة على لغة القرون الهجرية الأولى يولِّد أخطاراً كبيرة ، إن التطور الانسيابي للّغة الإنجليزية جعل الإنجليز لا يقرؤون « شكسبير » دون قاموس لغوي ؛ فهل سيحدث هذا مع اللغة العربية فلا يتمكن المسلم من قراءة القرآن والسنة وكتب التراث إلاَّ بالقواميس ؟!

إن لغتنا الأدبية لا تزال هي الفصحى ، والتراث اللغوي القديم يرفدها بالمفردات والأساليب ويوسع من دائرتها .

لذلك فإن دراسة التراث القديم يؤثر في الارتقاء بلغتنا الأدبية والحفاظ على أصالتها ؛ كما يؤدي إلى استمرار إفادتنا من النتاج الفكري المكتوب بالعربية الفصحى في حياتنا المعاصرة .

وإهمال تراثنا الأدبي القديم يقطع صلتنا بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، ويُمَكِّن لِلَّهجات العامية من النمو على حساب الفصحى ؛ مما يخلف التمزق في الأمة ؛ لأن لِلُّغة مكانة خطيرة في الوحدة الثقافية والهوية الذاتية .

وهنا تكمن أخطار الدعوة إلى تغيير القواعد النحوية والصرفية والبلاغية في دراسة العلوم الشرعية . . سيظهر القُصور في فهم القديم ، ثم الانقطاع النهائي ، بل الشك في ذلك كله لأنه مبني على الأصول

القديمة ؛ اعتباراً من بلاغة القرآن وإعجازه اللغوي ؛ إلى طرق استنباط الأحكام وفق قواعد « أصول الفقه » المبنية بصورة أساسية على قواعد اللغة العربية وفهم أساليبها .

[٦] مشكلة البحث العلمي :

« في عام ١٩٧٣م كانت نسبة سكان قارة أوروبا لا تتجاوز (١٢,٥٪) من مجموع سكان العالم ؛ ومع ذلك فإن هذه النسبة أنتجت (٤٥٪) من مجموع كتب العالم .

وعلى العكس من ذلك كانت نسبة سكان آسيا (دون الجمهوريات السوفييتية) (٥٧٪) إلاَّ أن إنتاجها من الكتب لم يتجاوز (٣٠٪) .

وتتضح هذه المقابلة مرة أخرىٰ بمقارنة الاتحاد السوفييتي بأفريقيا ، فنسبة سكان الاتحاد السوفييتي (٦,٥٪) من مجموع سكان العالم ، في حين أن نسبة سكان أفريقية ترتفع (٩,٧٪) ومع ذلك فالاتحاد السوفييتي أنتج (١٤٪) من كتب العالم في حين أنتجت أفريقية (١,٧٪) فقط .

وباختصار فإن عشر دول فقط تنتج (٦٠٪) من مجموع كتب العالم . . . »[٨] .

---

(٨) شعبان عبد العزيز خليفة : الإنتاج الدولي للكتب ، دراسة نوعية وعددية : ص ٦ ــ ٧ .

ومن المعلوم أن العالم الإسلامي يقع في آسيا وأفريقيا حيث النسبة المتدنية من الإنتاج الثقافي العالمي ؛ ولا شك أن الإنتاج الثقافي هو قمة الإنتاج الحضاري .

فمشكلة الثقافة مرتبطة بالمشكلة الحضارية ولا تنفك عنها ، وواضح أن البلدان المتقدمة تكنولوجياً هي التي حققت النسب العليا من الإنتاج الثقافي .

ولو تمت دراسة أبعاد مشكلة البحث العلمي والإنتاج الثقافي في العالم الإسلامي لأمكن تحديد بعض العوامل المؤثرة في تخلف الواقع الثقافي ؛ وربما يكون من المجدي حصر الكلام عن الدراسات الإنسانية والعلوم الإسلامية وما تعانيه من عقبات عامة ؛ فهذا النمط من الدراسات ألصق بالأيديولوجية وبروح الحضارة .

ومن أجل النفاذ إلى جذور المشكلة لا بد من التأمل في برامج إعداد القيادات الفكرية في العالم الإسلامي .

ولا شك أن وقت الإنسان وطاقته محدودان ؛ والعمل الدؤوب في البحث العلمي ، أو تحقيق النصوص ، ثم تحليلها قد يستنفد حيوية الإنسان إذا لم تضبطه ضوابط من وضوح الرؤية ، والقدرة على الموازنة بين القديم والجديد ، أو التراث والمعاصرة ، إن الخوف من ضياع الباحث في زاوية من زوايا الفكر يظل قائماً ما لم يلتزم بالرؤية الواضحة . . .

المفكـــر والأستـــاذ الجـــامعي

وبالنسبة للمفكر وللأستاذ الجامعي فإن الأمر جدير بكثير من التأمل ، وبمراجعة المناهج التي وضعت لتكوين شخصية الأستاذ الجامعي وبناء ثقافته الأكاديمية في مجال العلوم الإنسانية . . .

تلك المناهج التي تبدأ عادة بمرحلة الماجستير وتنتهي باجتياز الدكتوراه . ما مدىٰ تكاملها ؟ وما قدرسعتها ؟ وهل تنتهي بالدارس إلى أن يصبح مفكراً أو أديباً أو أستاذاً جامعياً ؟ هل يكفي أن يحقق طالب في التاريخ مخطوطة للماجستير وأخرىٰ للدكتوراه ليحتل مقعد الأستاذية ويصبح مسؤولاً عن تكوين كوادر المثقفين أو المتعلمين تعلماً عالياً ؟! . .

وقد تكون المخطوطتان المحققتان للمرحلتين من نمط واحد ، وتتناولان موضوعاً واحداً لن يأخذ من وقت الأستاذ وهو يحاضر سوىٰ دقائق ليغطيه ، وينتقل إلى ما سواه من موضوعات المادة التي يتخصص فيها ؛ فما هو أثر عمله عدة سنوات في مرحلتي الماجستير والدكتوراه على تدريسه الجامعي ؟

إن هذا الانفصال بين تحصيل العلم ، والعطاء العلمي جدير بالدراسة والمعالجة . .

وأنا لا أدعو إلى إهمال تحقيق كتب التراث وإسقاطها من الحساب في

تسجيل الرسائل الجامعية . . . ولكن ينبغي ألاَّ تمثل كل متطلبات الماجستير والدكتوراه . . بل توضع مقررات دراسية للمرحلتين ، وينصب الاهتمام على كتابة البحوث الصغيرة المتنوعة في مصادرها وموضوعاتها ، وتلقى محاضرات في مادة التخصص لتوسيع مدارك الطالب ، وتفتيح آفاق المعرفة بتخصصه من ناحية وبمجمل الثقافة العامة من ناحية أخرىٰ . . فليس الفكر في لزوم ترابط جوانبه مثل العملية الإنتاجية المادية ، إذ يمكن أن يتخصص العامل في إنتاج وحدة مكملة لوحدات الآخرين ، ولا يمكن للمثقف أن يحصر معلوماته في قضية واحدة من قضايا الفكر ؛ إذا أراد أن يبقى مثقفاً .

إن الوضع الحالي للمناهج وطرق التدريس والبحث لا يكفي لتكوين شخصية الأستاذ الجامعي ، ومن هنـــا وجدنا أساتذة لا يتمكنون من إلقاء محاضرة كاملة متصلة . . وآخرين يوصلون المعلومات بلغة عامية أو عربية ركيكة ؛ مما يؤدي إلى ملء أسماع طلبتهم وذاكرتهم بالعجمة ، وباللحن الذي ينشرونه في أوساط المؤسسات التعليمية .

ومن المسلم به أن مهمة الأستاذ الجامعي لا تقتصر على القُدرة على توصيل المعلومات للطلبة بصورة صحيحة ، بل تتعدىٰ إلى القدرة على البحث العلمي في مجال تخصصه ، والتمكن من الإضافة إلى المعرفة ؛ بحيث لا ينقطع عن التحصيل والعطاء طيلة حياته ، وبذلك وحده يكون قادراً على التجديد في محاضراته والإضافة إلى معلوماته .

ولا يعني ذلك أن مهمة الأستاذ الجامعي تعليمية بحتة ؛ بل هي مهمة تربوية تسعى لإضفاء المسحة الثقافية على الطلبة ، والتأثير في سلوكهم ، وعاداتهم ، وطرق تفكيرهم ؛ فتكسبهم النافع وتحذف منهم الضار ، وتقومهم فكراً وسلوكاً وهذا يتطلب أن يكون الأستاذ مؤهلاً تربوياً إلى جانب تأهيله العلمي الأكاديمي .

حقـــوق المفكرين الأدبيـــة والماديـــة

وإذا أردنا الإنصاف فلا بد من التأكيد على حقوق الأساتذة وحمايتها ، وحماية إنتاجهم العلمي ، وعدم الاكتفاء بمطالبتهم بالواجبات ، كما ينبغي أيضاً عدم تحميلهم وحدهم مسؤولية الركود العلمي . . . فما يحدث من سرقات علمية في الرسائل الجامعية ، فضلاً عن السرقات الأدبية الأخرىٰ التي تملأ المكتبات المخصصة لبيع الكتب بالاعتماد على ضعف الحماية للمؤلف قانوناً ، مما أضاع حقوق المؤلفين وعرَّض حياتنا الفكرية للخطر .

وإلاَّ فما هو شعور العالم الذي أمضى سنوات طويلة في تحقيق كتاب من كتب التراث ، عندما يجد كتابه وقد انتحله آخر بتغيير طفيف في المقدمة والحواشي ؟! وهل يستمر الغالم في متابعة الإنتاج وهو يعلم مصير منجزاته وأعماله العلمية ؟

إن حقوق التأليف في بلدان العالم المتقدمة محفوظة ، ومحترمة إلى حد كبير ، والعالم يفرغ للبحث والتأليف والتحقيق وهو مطمئن إلى ضمان حقوقه الأدبية والمادية ، وهذا عامل هام في إيجاد الأجواء الصالحة للبحث العلمي .

ولا يكفي أن نعتمد على « النية » وحدها في التأليف والتحقيق ، فلماذا لا يسري ذلك على أجور المعلمين ومحاضرات الأساتذة ، ويسري على حقوق التأليف وحدها ؟ . مع أن أجور المعلمين دفعتها الدولة منذ صدر الإسلام ، بل وجعلت التعليم مقابل المال في مفاداة أسرى بدر .

إنه إذا أردنا أن تسري الروح في حياتنا الفكرية ؛ فلا بد أن نحافظ على الحقوق المادية والأدبية للمؤلف وللمحقق ؛ بوضع اللوائح التنظيمية ، ودعم المؤسسات الرسمية المتخصصة ، وتشريع العقوبات المناسبة لسرقة الأفكار والمؤلفات .

إن الأجواء الفكرية الراكدة جعلت لصوص الفكر آمنين حتى من النقد والتعريض بهم فضلاً عن أمنهم العقوبة ؛ فالروح الفردية وعدم المبالاة أدى إلى ألاَّ يرتفع قلم إلاَّ ليدافع صاحبه عن حقوقه ، وليس عن حقوق المؤلفين عامة .

أين المعــــارك الأدبية ؟ وأين النقد الأدبي يقوِّم النتاج ويُعَرِّفُ به ويحميه ؟ وكم تصدر من دراسات وتحقيقات لا تحظى باهتمام أحد لعدم وجود النقاد ؟

وكيف تنتعش حياتنا الثقافية في مثل هذه الأجواء الراكدة ؟

إننا نعاني من فوضى في النشر لا نجد لها مثيلاً لدى الأمم الأخرى . . . ومنذ عدة عقود ، وعندما بدأت حركة إحياء التراث وساهم فيها عدد محدود من العلمـاء في بداية الأمر ، ظهرت مشكلة تكرار الأعمال لعدم وجود مركز يُوَحِّدُ المعلومات عن الكتب المطبوعة والمخطوطة ؛ يمكِّن العالم من تسجيل حقه في العمل بكتاب معين ، ويعلن ذلك ويلتزم به أدبياً ، فلا يزاحمه أحد ولا يقلقه طفيلي ، ومقابل ذلك يلتزم بإخراجه ولا يُسمح لعالم واحد باحتكار مجموعة كتب لا ينشر إلاَّ مقدماتها ثم ينتقل إلى رحمة الله !

لقد تضخمت هذه المشكلة بتوسع الدراسات العليا ، وإقبال طلبتها على تسجيل رسائلهم العلمية في تحقيق التراث .

أعمـــال مكـــررة .. وجهود ضائعـــة

وهنا تطالعنا صورة أليمة عن ضياع الجهود الكثيرة في الأعمال المكررة ، وأحياناً يعمل ثلاثة أو أربعة من الباحثين في نشر كتاب واحد ، وفي الغالب يكون مستواهم متقارباً ، ونسخهم متشابهة . . . في الوقت الذي نحن بحاجة فيه إلى كل جهد لإنجاز مهمة تحقيق التراث في مدة زمنية مناسبة .

ولو نُسِّقَتِ الطاقات فربما وصلنا إلى « مكتبة عربية تراثية متكاملة » خلال ربع قرن من الزمان ، إن بعضهم لا يرىٰ بأساً في صدور عدة نشرات من الكتاب الواحد ؛ فالنسخ تكثر وتغطي حاجة العالم الإسلامي ؟؟ ولكنه ينسى أمراً أهم وهو تبديد الجهود وضياع الطاقات لفئة من المتخصصين نحن بأشد الحاجة إليها .

والمشكلة ليست من المعضلات ، ولا تحتاج سوىٰ الاتفاق بين الجامعات ومراكز التحقيق المختلفة على ترشيح جهة معينة مثل : معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، أو وحدة المعلومات التابعة للندوة العالمية للأنشطة العلمية الإسلامية ، أو غيرهما تقوم بجمع المعلومات في جهاز « كمبيوتر » ، وتنظيمها وجعلها في متناول الجامعات والمراكز العلمية الأخرىٰ ، فلا تسجل رسالة إلاَّ بعد الرد الإيجابي من قبل تلك الجهة .

فهل تعجز مؤسساتنا عن ذلك في عصر الاتصالات السريعة ؟ وكثير منها تمتلك « التلكس » وسائر وسائل الاتصال ، فلماذا نهدر طاقاتنا ونضيع جهودنا بسبب الإهمال وعدم المبالاة وحدهما ؟! .

إن إلقاء نظرة سريعة على نشرة « أخبار التراث العربي » التي يصدرها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، أو « النشرة الإخبارية » التي تصدرها وحدة المعلومات التابعة للندوة العالمية للأنشطة الإسلامية ، توضح مدىٰ تفاقم المشكلة وآثارها السلبية على حياتنا الفكرية ، إذ قلما يخلو عدد منهما من ذكر الازدواجية في الأعمال الفكرية ، فمحقق يعلن عن اشتغاله بتحقيق نص ، ويتعقبه ثان بأنه يعمل في تحقيق النص نفسه ، وقد يقوم ثالث بإخراج النص دون الاثنين ، ودون إعلان ؛ عملاً بحديث « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » !!

إن دراسة تاريخ الحركة الفكرية في الإسلام تفتح بصيرة الإنسان المعاصر على أبعاد الالتزام الأدبي ، وانكشاف السرقات الأدبية ولو بعد حين .

وتقاليد العلماء في البحث العلمي والتكامل المعرفي ، والبعد عن « الأنانية » وحب الشهرة على حساب الآخرين ، وقبل ذلك كله استحضار « النية » في الأعمال العلمية كان لها أعظم الأثر في الازدهار الثقافي في تاريخنا .

البحث والتأليف والحاجة إلى دراسة نقدية

إن البحث والتأليف في العلوم الإسلامية خلال القرن العشرين يحتاج إلى دراسة تقويمية ونقدية شاملة تجيب عن هذه الأسئلة :

١ ــ ما مدى اهتمـــام هذه البحوث والدراسات بالمشكلات العملية التي تواجه المجتمعات الإسلامية ؟

٢ ــ ما هي الجوانب التي ركزت عليها ، وما هي الجوانب التي أغفلتها ؟

٣ ــ ما هي الجوانب التي أشبعتها ، وما هي الجوانب التي لا تزال بحاجة إلى بحث ؟

٤ ــ ما مكانتها العلمية بين أنماط الدراسات المماثلة أو المقابلة عالمياً ؟ هل هي مواكبة في المستوىٰ للحركة الفكرية العالمية ؟

٥ ــ ما مدىٰ التزامها بالمنهج العلمي ، في الأسلوب والتوثيق ؟

٦ ــ ما نسبـــة التكرار فيها ؟

وبالنسبة لنشر التراث يلزم الإجابة على ما يلي :

١ ــ ما مقدار كمية النشر ، وما نسبة المطبوع إلى المخطوط ؟

٢ ــ هل ما ينشر يخضع لخطة مدروسة ، من حيث ترشيح المؤلفات الأكثر أهمية للنشر أولاً ، وكذلك من حيث الأهمية الذاتية للمؤلف ، ثم

من حيث أهميته في تكامل المكتبة الإسلامية ؟

٣ ــ هل يراعى في النشر منهج التحقيق العلمي ، أم يغلب عليه الهدف التجاري ؟

٤ ــ ما هو أثر نشر كتب التراث الإسلامي في الناس ؟ وما هي الآثار الإيجابية ؟ وما هي الآثار السلبية ؟

٥ ــ ما هي الخطوط المرسومة لنقل التراث الفكري والقيمي للأجيال الجديدة ؟ هل يستطيع القراء ـ إذا وجدت لديهم الرغبة ـ استيعاب كتب التاريخ والأدب التي أُلِّفت في القرون الأولى من حيث الأسلوب والمناهج واللغة ؟

وهل يمكن تيسير التراث وعرضه على مستويات متباينة ؛ للمثقفين وللمتعلمين ولعامة الناس ؟ وما هي الحدود والشروط والوسائل ؟

[٧] التراث ومشكلة هجرة العقول :

حافظ المجتمع الإسلامي في القرون الخمسة الأولى للهجرة على أصحاب العقول المبدعة والمهارات المتفوقة في شتى ميادين الحياة ، وكان العلماء أحراراً في التجول في أرجاء الدنيا طلباً للعلم وزيادة في الاطلاع ، ولكن لم يحدث قط أن اختار عالم كبير البقاء الدائم خارج العالم الإسلامي ، ولا يمكن القول بأن عناصر الجذب لم تكن موجودة في بلاط البيزنطيين في القسطنطينية ، أو في بلاط اللاتين في فرنسا ـ على الأقل في علوم الطبيعة ـ ولكن قوة الشعور بالانتماء للأمة ، والتمايز الواضح ثقافياً وحضارياً وشعورياً بين عالم الإسلام وما وراءه ، ومكانة العلماء في الإسلام تلك المكانة التي قررها كتابه الأول « القرآن الكريم » وجاءت السنة تؤكدها وترسخها ، واستقرار هذه المعاني في نفوس عامة الناس وخاصتهم ـ فجميعهم يحترم العالم ويعترف له بالمكانة ، بل وكثير من معارفه يتطوعون في خدمته ودعايته وقضاء مصالحه دون مقابل ـ كانت أسباباً في لزوم العلماء المسلمين دار الإسلام .

كما أن العالم لم يجد أمامه قيوداً فكرية تمنع البحث العلمي الخالص أو تحد من مجالاته . . سواء اتصل بعلوم الشريعة أو الآداب أو الفنون والصناعات . . فقد حظي أرباب الفنون جميعاً بمكانة اجتماعية طيبة ، ولقوا رعاية وتشجيعاً ومكافآت سخية من حكام عصرهم ، ونظراً

لاجتماع هذه العقول المفكرة وكثرتها في كل فن فقد ظهرت التيارات الفقهية والنحوية والأدبية والعلمية المتنوعة ، وانتشر التعليم وأسست المدارس التي تطورت إلى الجامعات التي تعتبر أقدم الجامعات في العالم . .

لقد أدىٰ ذلك الاهتمام بالتعليم والرعاية لأصحاب الكفاءات أدبياً ومادياً إلى الازدهار الأدبي والاجتماعي والاقتصادي . . . فنجد اهتماماً بالأدب وتذوقاً للّغة وللأساليب ، ونتاجاً واسعاً يحظى الكثير منه بعناية النقاد ، كما نلحظ حياة اجتماعية مزدهرة رسخت نظام الأسرة كما حدده الإسلام ، ووثقت عرىٰ الروابط بين أبناء العشيرة والقبيلة والمحلة والقرية والمدينة والقطر والعالم الإسلامي كله بشكل دوائر متداخلة بؤرتها الأسرة ، وفيها تقوى التزامات التكافل وتشتد ثم تخف كلما اتسعت الدائرة . . .

ولكن العلاقات تبقى دائمًا منضبطة في دائرة الأخوة وتحريم العصبية والتناصر في الظلم وإقرار العدل والتكافل بين المؤمنين .

وكان العلماء على صلة ببعضهم ، يتوارثون تقاليد التربية والتعليم خلفاً عن سلف ، فكانوا يعيشون في أجواء علمية كَوَّنوها لأنفسهم في مراكز الحركة الفكرية المهمة في العالم الإسلامي ، وقد ساعدت الحكومات القائمة في كثير من الأحيان على استقطاب العلماء في مراكز الحكم ، وكان اجتماع أصحاب العقول يولد فيضاً من الأفكار الجديدة في الفنون المتنوعة .

وكان من ثمار ذلك في الحياة الاقتصادية أن تحولت منطقة السواد إلى بقعة خضراء مرتبطة بشبكة ري معقدة . . . كما نلاحظ التعقيد في هندسة

الري في حدائق قصر الحمراء بغرناطة التي تعرف اليوم بـ « جنراليف » . .

ومن الواضح أن السياسة الاقتصادية التي ترتكز على مبادىء العدالة أدت دوراً في التقدم الزراعي والصناعي كما أن فكرة الاهتمام بعنصر الوقت أساسية في تكوين الحضارة الإسلامية حيث اهتم الدين بغرس فكرة أن الإنسان يحاسب عن وقته فيما قضاه « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما فعل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » [أخرجه الترمذي في جامعه ٤/٦١٢ ، وقال : حديث حسن صحيح] .

إن الاهتمام بعنصر الزمن إضافة إلى استثارة الإنسان لإعمار الأرض والإفادة من تسخيرها له ، وتهيئة الظروف النفسية والاجتماعية والمادية للعلماء يشكل بعداً إيجابياً عظيم الجدوىٰ في تراثنا ، وهو جانب لم يتم استقراؤه بدقة وعمق حتى الآن . . رغم أن الأمة تَواجه نزفاً خطيراً في العقول الذكية والكفاءات العالية التي استمرت في الهجرة إلى الغرب (أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية) منذ عدة عقود . . ولا تزال تتصاعد بقوة بسبب ظروف العالم الإسلامي الدافعة للهجرة من ناحية ، وظروف عالم الحضارة الغربية الجاذبة لأصحاب الكفاءات العالية ممن تعبت بلدانهم في تعليمهم في المراحل الأولى ، ثم الإنفاق عليهم في المراحل العليا ، وهم يُبتعثون للحصول على الماجستير أو الدكتوراه أو التخصصات الدقيقة . .

وعند ملاحظة الأرقام التي تذكرها الدراسات والتقارير المتخصصة

يُصاب الإنسان بالذهول ، ويدرك سبباً مهماً من أسباب تخلف العالم الإسلامي ، ولنقتطف من تلك الدراسات هذه المعلومات الإحصائية للدلالة على خطورة الأمر :

١ ــ إن عدد الأطباء العرب في بريطانيا فقط بلغ (٤٦٠٠) طبيب ، وإن (٣٥٪) من أطباء لندن وحدها من العرب !

وإن عدد الأطباء الإيرانيين العاملين في نيويورك وحدها يفوق عدد زملائهم العاملين فوق أرض إيران جميعاً !![9] .

٢ ــ لقد امتنع ألف عالم ومهندس وطبيب من حملة الدكتوراه من الولايات المتحدة الأمريكية عن العودة إلى وطنهم مصر ما بين عامي ١٩٧٠م ـ ١٩٨٠م[10] .

٣ ــ إن عدد المهندسين المهاجرين من مصر إلى الولايات المتحدة بلغ (٣٣٩) مهندساً عام ١٩٦٨م ، ولو استمرت الزيادة بمعدلاتها الحالية فسوف يصل عدد المهاجرين من المهندسين المصريين ضعف عدد المتخرجين من كليات الهندسة بسائر الجامعات المصرية[11] .

---

(٩) مجلة الوطن العربي ، عدد ٢٠٤ في ٩ يناير [كانون الثاني] ١٩٨١م ، نزيف العقول البشرية : ص ٣٦ .

(١٠) الدكتور محمد عبد العليم مرسي ، نزيف العقول البشرية : ص ٥٧ .

(١١) الدكتور محمد عبد العليم مرسي ، نزيف العقول البشرية : ص ٦٥ .

٤ ــ هناك مستويات عالية من أساتذة الجامعات المسلمين يعملون في أوروبا والولايات المتحدة ، في جامعاتها أو مراكز البحث في شتى العلوم .

إن هذه الظاهرة الخطيرة قد تعكس ضعف الولاء للوطن الأصلي أحياناً ؛ لكنها في أحيان كثيرة لها مسوغاتها القوية والمتمثلة بحالة التخلف في العالم الإسلامي ، وانعدام الوعي أو ضعفه أحياناً حتى على صعيد المستويات القيادية فضلاً عن المستويات الأخرىٰ .

وكثيراً ما عاد بعض المهاجرين فاصطدموا بالواقع المرير ، وأصابهم اليأس فعادوا من حيث أتوا ، يعيشون لأنفسهم ولعلمهم وهواياتهم بعيداً عن مشاكل مجتمعاتهم الأصلية المتخلفة .

لقد تمكنت أرض الحضارة الغربية من احتواء الكثيرين من أبناء العالم النامي ؛ ومعظمهم من أبناء العالم الإسلامي ، وضمهم إلى مسيرة الأغنياء الأقوياء ؛ مفرغين عالمنا الشاحب من بقية الدماء النابضة فيه .

وقد أتحنا بأنفسنا هذه الفرصة لتفريغ دمائنا عندما أرسلنا أبناءنا للدراسة هناك دون أية توعية . . إننا نعاني من فراغ روحي وفكري يشدنا إلى بعضنا . . « وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » . . وإن الاعتماد على مجرد عبارات طنانة عن خدمة الوطن ما عادت تجدي نفعاً مع عوامل الدفع والجذب العنيفة التي تقطع أوصالنا بقوة وتبتنا عن جذورنا بشدة .

إن عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية يقارب عدد سكان العالم

العربي وحده ، وكان فيها عام (١٩٦٨م) (١,٨٥٠,٠٠٠) مليون وثمانمائة وخمسون ألفاً من العلماء والمهندسين والأطباء ، واعتبر المخططون ذلك غير كاف ، وجامعاتهم تخرِّج (٦٢,٠٠٠) اثنين وستين ألفاً من هذه الفئات ، وهم يستقبلون قرابة (٨,٠٠٠) ثمانية آلاف من بقية العالم[١٢] وخاصة من العالم الإسلامي ؛ ويرون أنهم بحاجة إلى أعداد أكبر لضمان التنمية والتقدم المستمر ؛ فكم يقابل هذه الأرقام من العلماء والأطباء والمهندسين في العالم العربي والإسلامي ؟!

لقد تمكنت الولايات المتحدة من تحقيق الغنى والتقدم وصناعة أمجادها العلمية والتقنية العسكرية بعقول أبنائها ، وعقول أبناء غيرها ، وخاصة من أبناء العالم الإسلامي .

فماذا فعلنا نحن من أجل البناء والتقدم . . من أجل أنفسنا ومن أجل مستقبل أبنائنا . . من أجل ثقافتنا ومقوماتنا . . من أجل عقيدتنا ؟

هناك (٢٥٪) من مجموع الأطباء العاملين في الولايات المتحدة هاجروا إليها من دول أخرى[١٣] . . وقد وصل عدد المهاجرين إليها من علماء ومهندسي وأطباء العالم الثالث (١٥,٢٧٢) خمسة عشر ألفاً ومائتين واثنين وسبعين في عام ١٩٦٧م ، واستمرت الهجرة بعد ذلك باطراد . .

---

(١٢) نزيف العقول البشرية : ص ٧١ .

(١٣) نزيف العقول البشرية : ص ٦٣ .

فمــاذا فعلنا من أجل وقف ذلك ؟

إن تقوية الجذور بالحضارة والثقافة ، والتأكيد على ملامح الذات التي يحدد التراث قسماتها يقدمان حلولاً كثيـرة لمشكلاتنـا الحضاريـة والثقافية ، وما تناولته ليس إلاَّ غيضاً من فيض ، وإلاَّ فما أكثر القيم الحضارية والحوافز الخُلُقية التي تحتويها كنوزنا التراثية ، والتي تنتظر الباحثين الأكفياء يجلونها وينظرونها ويفيدون منها في بناء المجتمع الإسلامي الحديث .

الفصل الثالث

التراث ومسؤولية الجامعات في العالم الإسلامي

إن العالم الإسلامي إذا حافظ على هويته عن طريق التعليم والتربية الإسلامية ، فإنه يستطيع أن يقدم لعالم اليوم الخير الكثير ، لأنه يحمل الهداية للبشرية التي تمكِّن للأمن والطمأنينة داخل « النفس » و « المجتمع » وهو أمر لازم للإحساس بالسعادة أكثر من الرفاهية والتيسير الذي تحققه « التكنولوجيا » المعاصرة ، والتي لو اتحدت مع الإسلام فإنها تحقق المجتمع السعيد الذي يكفل لأفراده الفلاح في الدنيا والآخرة ، ولكن ذلك لن يتحقق إلاَّ بعد جهد كبير تبذله الجامعات في مجتمعنا أولاً من أجل الوصول إلى التوعية الشاملة بالإسلام ، والوصول إلى هيمنته على أهداف التعليم ومناهجه وطبعها بطابعه المتميز . .

فالجامعات تؤدي ـ في العصر الحديث ـ دوراً كبيراً في نشر الوعي العام ، وتكوين قيادات المستقبل ، وقد نشأت معظم الجامعات في العالم العربي والإسلامي على أسس علمانية وذلك بحكم تسلط القوى الاستعمارية على العالم الإسلامي وقت تكوينها ، فتطبعت بطابع الحضارة الغربية ، وتولت شؤونها قيادات تخرجت في الجامعات الغربية ، ورضعت لبان العلمانية والأفكار الغربية حتى تشبعت بها ، لذلك لم يكن للإسلام دور هام في صياغة مناهج التعليم ، ولا في وضع أهداف التعليم الجامعي ، بل إن اسم الإسلام قد لا يرد في لوائح هذه الجامعات فضلاً عن أن يكون محوراً للأهداف أو أساساً للمناهج .

ولقد استهدف التعليم العلماني في العالم الإسلامي إنشاء أجيال المسلمين في أحضان هذه الجامعات منسلخة عن الإسلام ، جاهلة به ، تسخر من الإسلام وتعاديه دون أن تعرف عنه وعن رجالاته الكثير ولا القليل ؛ فهي متعلقة برجال الفكر في التاريخ الأوروبي من « أرسطو وأفلاطون » إلى « رَسِل وسارتر » ، مُعَظِّمَةً لقادة الفتوح السياسية الغربيين من « هانيبال » إلى « نابليون بونابرت » إلى « جورج واشنطون » ، أمثلتها في الحياة : أشخاص لم ينطقوا بلغتنا ، ولم يعيشوا فوق أرضنا ، ومع ذلك فهي تعرف الكثير عنهم بقدر ما تجهل عن نفسها وماضيها وتراثها ورجال تاريخها . . . تلك هي الثمرة المسمومة للمناهج التي سعت إلى وضع الحواجز السميكة بيننا وبين ماضينا ، وذلك خوفاً من عودتنا إلى الإسلام الذي إذا درسنا ماضينا درسناه ، وإذا اندرس

ماضينا اندرس معه ، ولكن :

﴿ ويَأْبَىٰ ٱللَّهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ (التوبة : ٣٢) .

لقد كان الإسلام في أذهان قادة التعليم العلماني عائقاً دون التقدم الحضاري الذي وصل إليه الغرب ، فكما أن الغرب لم يبلغ هدفه إلاَّ بعد صراع عنيف مع النصرانية تمكن في نهايته من حصرها داخل جدران الكنيسة وإبعادها عن التعليم والمجتمع والحكم ، فإن الشرق الإسلامي لن يتمكن من النهضة ـ في رأيهم ـ إلاَّ بحصر الإسلام داخل جدران المسجد إذا لم يتم الإجهاز عليه نهائياً ، وبذلك ينفتح الطريق أمام التقدم والتحضر !!!

لقد تناسى هؤلاء حقائق هامة تتمثل في أن الماضي الذي يريدون عزل الأجيال عنه يمثل فترة الازدهار الحضاري علماً وعمراناً وقوة جعلت المسلمين في الصدارة بين العالمين ، وأن الارتباط بمثل هذا الماضي الزاهر خير حافز للتقدم والنهضة في عصرنا الحاضر ، بينما كان الانقطاع عن ماضي العصور الوسطى في أوروبا يمثل انقطاعاً عن التخلف والهمجية والظلام .

وتناسوا أيضاً أن الأصل في النصرانية تنظيم العلاقة بين العبد والرب ، أن تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فحصرها بين جدران الكنيسة عودة بها إلى طبيعتها ونطاقها .

بينما الأصل في الإسلام شمول العبادات والمعاملات والسياسة

الشرعية في الداخل والخارج ، فحصره بين جدران المسجد قضاء عليه ، وإخلال بأركانه وأحكامه ، وخروج به عن طبيعته في تنظيم شؤون الحياة .

وتناسوا أيضاً الفرق بين الإسلام والنصرانية المحرَّفة ؛ حيث إن الإسلام لا يعيق التقدم العلمي بل يدعمه ، ويجعل العلوم والصناعات من فروض الكفاية ، بينما كانت النصرانية المحرَّفة تقف أمام جهود العلماء ، وتمنعهم من إعلان الحقائق العلمية ، وتضطهدهم وتحرق كتبهم وتحرمهم من بركاتها .

وتناسوا أيضاً أن حركات المقاومة للاستعمار انطلقت في مطلع هذا القرن من داخل المساجد وتحت شعار « الله أكبر » ، وأن أعظم القوى المعنوية المؤثرة في جماهيرنا ، والدافعة إلى البذل والتضحية تتمثل في الإسلام ، وأن حرمان الأمة من الإسلام يفقدها قوة روحية ضخمة كانت دائماً سندها في المحن التاريخية منذ مواجهة القوىٰ الصليبية حتى مواجهة القوىٰ الاستعمارية الجديدة .

وتناسوا أيضاً أن المجتمعات الإسلامية المعاصرة.ترتكز في أعرافها وتقاليدها وقيمها وأخلاقياتها وأنماطها السلوكية على « الإسلام » وأنه يهيمن على ذلك كله بمستويات متباينة ، تبعاً لقوة التصاق الجماهير به وتأثرها بتعاليمه ، وأن تماسك هذه المجتمعات القائم على الإسلام سوف ينهار عندما ينحسر الإسلام عن التربية والتعليم بعد انحساره عن الحكم

والسياسة وشؤون المال .

وسوف يترك غياب الإسلام فراغاً هائلاً في الحياة الخلقية والروحية ، ولن تتمكن قيم التربية الغربية الطارئة من سد هذا الفراغ حتى لو كانت تمتلك المقومات اللازمة إلاَّ بعد زمن طويل . . . مع أن هذه المقومات تحتاج إلى فحص واختبار على ضوء واقع المجتمعات الغربية المعاصرة ، فإذا كانت قد عجزت في بناء المجتمعات المستقرة السعيدة في الوسط الذي نمت فيه ، وتأثرت في بناء مفاهيمها وأهدافها ووسائلها بمزاجه وسلوكياته وأخلاقياته وتطوره ، فالأحرىٰ أن تعجز عن السيطرة على مجتمعات غريبة عنها غربة تمتد بعيداً في أعماق التاريخ ، كما تغور بعيداً في أعماق النفس المسلمة ، ولن أدخل في تفاصيل عن واقع القيم التربوية في المجتمعات الغربية ومدىٰ فشلها في بناء الحياة ، بل سأكتفي بخبر واحد يعتبر مؤشراً خطيراً ، ويدل بوضوح على انهيار المدنية الغربية رغم إمكاناتها التكنولوجية والمادية الضخمة ، فقد صرح مدير مصلحة الإحصاء الأمريكية في ٢٢ ذي القعدة ١٤٠٢هـ الموافق ١٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢م :

« أنه لأول مرة منذ بداية هذا القرن تصبح أغلبية سكان مدينة سان فرانسيسكو من العُزَّاب » .

وأوضح « بروس شامبمان » في مؤتمر صحفي نظمته الجمعية الاجتماعية الأمريكية أنه « وفقاً لأرقام آخر تعداد فإن ٥٣٪ من سكان سان

فرانسيسكو غير متزوجين » ، وأعرب عن اعتقاده بأن هذه الأرقام يمكن أن تكون مؤشراً على أفول الأنموذج العائلي التقليدي !!.

وأضـــاف شامبمـــان :

« إن هذه التغييرات الاجتماعية ملائمة لتحقيق الرفاهية في المدينة التي زاد عدد سكانها من الشباب بين ٢٥ و ٣٤ سنة بمقدار (٤٠,٤٪) خلال العشر سنوات الأخيرة » .

وقـــال :

« إن التعداد لم يشمل عدد المصابين بالشذوذ الجنسي الذين يقطنون المدينة والذين يشكلون ١٥٪ من السكان تقريباً !!! » وبالطبع فإن الأمر لا يحتاج بعد هذا إلى مزيد للبرهان على فشل القيم التربوية الغربية .

إن أمن العالم الإسلامي الجماعي والفردي يرتبط بالإسلام ، فليحذر الذين يسعون إلى طمس الإسلام ودفعه إلى الوراء من تهديد هذا الأمن الجماعي والفردي بما لا طاقة لأحد بوقفه أو دفعه .

إن ضعف الإدراك لنفسية الشعوب الإسلامية ، ومقومات المجتمعات الإسلامية ، ومسيرتها التاريخية ، والعوامل المؤثرة فيها هو الذي جرَّ إلى المناداة بالعلمانية وبإبعاد الإسلام عن الحياة .

ولا شك أن غياب الوعي الإسلامي الصحيح ، وضعف القيادات العلمية الإسلامية عن بيان حقيقة الإسلام وأثره ، واستمرار غلق باب

الاجتهاد لعب دوراً بارزاً في إحداث الفراغ الذي ملأه العلمانيون مستغلين التعليم أعظم استغلال ، لأن « التعليم أعظم عمل يقوم به المجتمع الذي يرغب في التخلص من الأديان » ، كما يقرر « هِيكِل » ، وقد انتبه بعض المفكرين المسلمين إلى خطورة ذلك ، ونبّه إليه ، فقال محمد إقبال رحمه الله :

« إيَّاك أن تكون آمناً من العلم الذي تدرسه فإنه يستطيع أن يقتل أمة بأسرها » .

وقال الشاعر أكبر الإلـــه آبادي :

« يا لبلادة فرعون الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات وقد كان ذلك أسهل طريقة لقتل الأولاد ، ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة في التاريخ » .

ولكن هذه التنبيهات لم تثمر في إعاقة تيار التعليم العلماني بسبب غياب الوعي الإسلامي الجماعي .

ولا شك أن الفراغ الذي تركه انحسار الإسلام عن ميادين العلم والثقافة كان واسعاً حيث لم يبق له سوىٰ المؤسسات التي تعنى بدراسة الشريعة ، وهي محدودة وقاصرة على أنماط التعليم التقليدية الموروثة عن المؤسسات التعليمية التي قامت قبل عشرة قرون ، كالمدارس النظامية والأزهر ، وما بعدها كالمستنصرية ومدارس الحديث التي أعقبتها . . . وهي مؤسسات كانت تكفل للمجتمع الإسلامي احتياجاته

في الفتوىٰ والقضاء والتوعية الدينية ، وكان باب الاجتهاد مفتوحاً ، وكانت تمثل مرحلة رائدة ومتقدمة في تلك القرون ليس في علوم الشريعة فقط بل في العلوم الطبيعية والرياضية والطب ، وهي تعكس المستوى الحضاري الذي بلغته أمة الإسلام آنذاك عندما كانت بغداد وقرطبة مراكز علمية عالمية .

أما مؤسسات التعليم الإسلامية المعاصرة فإنها ليست بمستوىٰ العصر ـ للأسف ـ وهو أمر لا بد من الاعتراف به عن قناعة أولاً ، ولا بد من بحث أسبابه وجذوره التاريخية ، ثم لا بد من وضع الخطط العلمية من قبل قادة المسلمين ومفكريهم للنهوض بمؤسسات التعليم الإسلامية لمواكبة العصر على صعيد الوسائل التعليمية ، والمناهج التعليمية ، والمفاهيم التعليمية ، والأهداف التعليمية ، والقيادات التعليمية .

إن الدراسات الكلاسيكية الطابع ، ذات الوسائل التقليدية ، لم تعد ملائمة لروح العصر ومتغيراته الدائمة ، وهي لن تُخرِّج إلاَّ قيادات ضعيفة محدودة الأفق ، ضيقة التصور ، تحفظ ولا تفكر ، تسلِّم ولا تنقد ، تقلِّد ولا تجتهد ، تجتر ولا تبتكر . . وإن ذلك يرجع إلى عدم تطور التعليم في العالم الإسلامي منذ نهاية العصر الذهبي للإسلام حتى مطلع القرن العشرين ، وبداية التعليم الحديث الذي طغت عليه العلمانية ، وبالطبع فالتوقف الحضاري ، وما تبعه من تدهور أو انقطاع البحث العلمي الذي نشط في الغرب منذ عصر الانبعاث (الرينيسانس) حتى الوقت الحاضر

أدى إلى انقسام العالم إلى عالم متحضر وآخر متخلف ، وكان العالم الإسلامي في دائرة التخلف بالطبع ، وكانت قيادة الصناعة والعلوم بيد الغربيين تحكمها فلسفات مادية لا تمت إلى أي دين بصلة .

وليس الأمر قاصراً على العلوم البحتة والتطبيقية ، بل امتد إلى علوم جديدة تتعلق بالتصور العام للحياة والكون والإنسان والعلاقات الاجتماعية ، وعندما وضعت المناهج في جامعاتنا العصرية لم يكن هناك بديل إسلامي لعلوم الاجتماع والاقتصاد والنفس وغيرها ، ومن ثم درس طلابنا منذ نشأة هذه الجامعات الفكر الغربي ، ونقلت إليهم نظريات العلماء الغربيين في هذه الحقول الخطيرة على أنها مُسلَّمات علمية ، وأنها « العلم » ولا علم سواها ، وهكذا درس طلابنا أفكار « سان سيمون » و « أوجست كونت » ، و « دور كايم » ، و « ليفي بريل » ، و « ديفيد هيوم » ، و « آدم سميث » ، و « هوبز » ، و « هربرت سبنسر » ، و « فرويد » ، و « ماركس » ، و « إنجلز » ، و « مندل » ، و « بافلوف » ، ثم « ديوي » ، و « برتراند رسل » ، و « لاسكي » ، والآخرين من فلاسفة ومفكري الغرب في القرنين الأخيرين ، وكلهم ينطلق من أساس غير ديني في تفسير نشأة الخليقة والإنسان والمجتمع والتاريخ ، « وقد لا يمر ذكر اسم الإسلام في سائر المحاضرات التي تلقى على طلبة جامعاتنا في هذه العلوم » فما هو حصاد هذا الفكر المادي ؟ هل هو الإيمان بالله وعبادته وتوحيده والاقتناع بشريعته ، وتعمير الدنيا بالخير وغرس الإيثار والتعاون والحب في مجتمعنا ، وقد

قيل : « إنك لا تجني من الشوك العنب » !؟!

إن أجيال الضياع والتيه التي عانت الآلام ، وعاصرت الشقاء والنكد ، هي حصاد الفكر المادي الذي زرعناه في جامعاتنا برعاية وتعهد وتشجيع وإسناد أصحاب هذا الفكر الذين أبوا أن يشقوا وحدهم في أتون جحيم المادة ، وأصروا أن يصدروه إلى « عالم الإسلام » لتعميم البلوىٰ .

﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ (النساء : ٢٧) .

لقد تمكن الغربيون من إقناع معظم قياداتنا الفكرية بأن « فلسفة الحياة الغربية وعلومها الاجتماعية » هي البديل الحضاري عن « الإسلام الرجعي » . . . الذي هو سبب تخلف العالم الإسلامي ، ومصدر بلائه بما يشيعه من خرافات وتواكل وقناعة وحجر على العقول ، ومنع من التفكير الحر الذي يؤدي إلى التقدم العلمي والنهضة الحضارية !!

حتى لو توفرت حسن النية في القيادات الفكرية ـ جدلاً ـ فإنها ما كانت لتجد أمامها علوماً ناضجة نمت تحت ظل الإسلام في حقول التاريخ والاجتماع والنفس والاقتصاد والسياسة كما هو الشأن في ظل الحضارة الغربية .

بل حتى في نطاق الأدب من شعر وقصة ومسرحية لم تتبلور نظريات عميقة ، وتيارات تجديد أصيلة مرتبطة بماضينا الأدبي ، فالدراسات الأدبية والنظريات النقدية التي تدرس في جامعاتنا تترجم عن أدباء

ومفكري الغرب ، وليست ثمرة تطور طبيعي للأدب العربي الذي نال ازدهاراً عظيماً في العصور الذهبية للإسلام ، ثم أصابه ما أصاب الحضارة الإسلامية من ركود وجمود ، وهكذا وقف الأدباء في العالم الإسلامي أمام ثقافة أصيلة قديمة منبتّة عن الواقع المعاصر الذي فيه جوع شديد ، وفراغ واسع تقدم ركام الأدب الغربي لسده ، فهو أدب حظي بمعاناةٍ عميقة ، وأكسبه التطور التقني والفكري عمقاً في الشكل الفني والمضامين التي أغنتها مدارس علوم الاجتماع والنفس والفلسفة بمعانيها وأبعادها رغم الانحراف الذي يصبغها ، والذي يتمثل في الضياع والعدم والتمزق ، وهكذا درس طلابنا الكثير من المدارس الأدبية الغربية من « اللامعقول » والوجودية والرمزية والسريالية والعدمية وغيرها ، وأعجبوا بها ونسجوا على منوال أقطابها ، وكان الجهل بالإسلام والإعجاب بالغرب قد أديا إلى هيمنة الحضارة الغربية ومقاييسها الخلقية والسلوكية والجمالية على واقع الحركة الفكرية في العالم الإسلامي في القرن الأخير . وكل من سار مع التيار الجارف من أدبائنا ومفكرينا صعدت به وسائل الإعلام المختلفة إلى مستوى القمة من المجد والشهرة ، فذاعت كتاباتهم ، وانتشرت مؤلفاتهم ، وحصلوا على تكريم المجتمع مادياً وأدبياً ، مما مهَّد لانتشار أفكارهم وحيازتهم لجمهور القراء في عالمنا .

ولم تخل الساحة تماماً من الأدباء والشعراء المسلمين الذين وقفوا في القمة لتفوقهم الفني والفكري ، لكن أعدادهم المحدودة ، ووقوفهم أمام

التيار الجارف ، ومعاداة الإعلام العالمي لهم ، وكثرة خصومهم ، كل ذلك جعلهم لا يتمكنون من السيطرة على الساحة الأدبية وتوجيه الناشئة وفق أفكارهم وأهدافهم .

لقد قامت الجامعات الإسلامية في العالم الإسلامي لتؤكد على أصالة هذه الأمة وتوثيق ارتباطها بماضيها الإسلامي المجيد ، وتحيي شخصيتها على هدي الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، وصارت أملاً يرتجى ومطمحاً للخَيِّرين ، وهي رغم قصر عمر معظمها بالنسبة لبقية الجامعات في العالم الإسلامي ـ فضلاً عن بقية الجامعات العالمية ـ فإنها تمكنت من تنشيط الدراسات الإسلامية ودفعها إلى الأمام ، كما تمكنت من توجيه طلبتها نحو الثقافة الإسلامية ومصادرها الأصيلة ، ولكن المهام أخطر وأعظم من الإمكانات المتاحة ، وليس المقصود بالإمكانات وفرة الأموال فقط ، فإن بعض هذه الجامعات تمتلك ميزانيات جيِّدة ، ولكن قصور الإمكانات يظهر في قلة الأساتذة الأكفياء والباحثين المؤهلين في نطاق العلوم الشرعية ممن يجمعون بين التخصص العميق الدقيق ، والثقافة الواسعة الواعية ، وإن قلة عدد الأكفياء وضعف مستويات القيادة العلمية ينعكس على حصيلة الطلاب العلمية ، وتكوين شخصياتهم وحيازتهم على القدر المناسب من التربية والتعليم ، وقد يكون من المجدي أن يُسد النقص ويُرفع المستوىٰ عن طريق الإفادة من الأساتذة الأكفياء بصورة كبيرة ، ومضاعفة أثرهم عن طريق إشاعة محاضراتهم بواسطة أشرطة الفيديو والكاسيت ، وتوصيل أفكارهم إلى الطلاب والجمهور بواسطة

الإذاعة ، وعقد المناظرات والمحاضرات والندوات العلمية على نطاق واسع يحشد له الطلبة ، وبذلك يمكن إتاحة الفرصة أمام هؤلاء الأساتذة للإسهام في الارتفاع بالمستوى العام التربوي والتعليمي .

تـــلازم التربيـــــة والتعلـــيم

وإذا ركزتُ على الناحية التربوية فلأن الجامعات الإسلامية تحمل رسالة الإسلام بكل محتواها وشمولها ، ولذلك لا يمكن فصل الهدف التربوي عن الهدف التعليمي ، بل ينبغي أن يتواكبا ، إن الأستاذ هو المربي والمعلم حقاً ، وإن قدوتنا في ذلك رسول الله ﷺ الذي لخص أهداف بعثته بقوله : « إنما بعثتُ لِأتمِّمَ مكارم الأخلاق » .

لقد تربت أجيال المسلمين الأولى على أيدي العلماء الذين كان إسهامهم في توجيه المجتمع وتحصينه من المؤثرات الجاهلية أقوى من دور السلطات الرسمية في معظم مراحل التاريخ الإسلامي ، وإن كانت القوتان تتحدان في تحقيق هذا الهدف في مراحـل معينة كعصـر الراشدين .

وإن ما قام به « ابن مسعود » في الكوفة كان له الأثر البالغ في نشأة مدرسة الحديث الكوفية ، ودور « أبي موسى الأشعري » . . في بناء مدرســة القراءات البصرية واضح ، ودأب التابعون من بعدهم على نشر

العلم وتربية الأجيال الإسلامية . . فكان « عـامر الشعبي » بمكـة المكرمة ، و « سعيد بن المسيب » في المدينة المنورة . . . و « الحسن البصري » و « محمد بن سيرين » في البصرة ، وقام من بعدهم مئات الأعلام بدورهم الذي مكَّن للإسلام في قلوب الناس وفي ديار الإسلام معاً .

ومنع « أحمد بن حنبل » بوقفته المشهورة سريان الانحراف في العقيدة معـرضاً نفسـه للخطر . . وكـان ألوف النـاس يتـوبـون على يـد « ابن الجوزي » ببغداد ، ويعلن العشرات إسلامهم إثر كل خطبة يلقيها في جامع المنصور ، ويقف « ابن تيمية » وقفته المشهورة في الجهاد بالعلم واللسان لمقارعة البدع والانحرافات ، وبالنفس لصد غزو التتار .

ولا يخفى دور « العز بن عبد السلام » في تهيئة المجتمع الإسلامي أمام الغزو المغولي . . هكذا تتالت الأجيال ، ومعها العلماء والقادة المربون يحفظون لها هويتها بإحياء معالم السنن .

إن دور العلماء في بناء المجتمع الإسلامي أساسي وفعال ، وإن الأمة اليوم تتعرض لأعتى أنواع الغزو في مراحل تاريخنا الثقافي والحضاري ، وهي بحاجة إلى وقفة مشهودة من علمائها لمنع انحراف الأجيال الإسلامية المعاصرة عن الإسلام عقيدة وشريعة .

وإن نعمة الإيمان من أجلِّ النعم التي أنعمها الله على المسلمين ، فما

ينبغي التفريط بهذه الأمانة الثقيلة ، قال الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ (إبراهيم : ٢٨) .

التربيـــــة بالقـــــدوة

إن القدوة الحسنة هي أمثل الطرق لتربية الأجيال الإسلامية وهي طريقة رسول الله ﷺ ، وطريقة الصحابة والتابعين والأتباع ومن بعدهم من جهابذة العلماء ، وإن العناية بتربية الطلبة وتوجيههم ، وعدم إبقائهم بمعزل عن الأساتذة هي أكثر الطرق فعالية في التأثير على سلوكهم وتقوية صلتهم بالله وبتعاليم دينه .

إن الأساتذة في الجامعات الإسلامية كما لا يخفى هم دعاة أولاً وليسوا مجرد موظفين ، ولذلك لا يمكن أن يقتصر عملهم على الواجبات الرسمية المناطة بهم ، إذ هم لا يستطيعون ذلك ، كما أن الجامعة لا تستطيع تحقيق أهدافها التعليمية والتربوية والعلمية إلاَّ عن طريق هيئة التدريس ، وأن وحدة الهدف والرغبة الصادقة في خدمة الإسلام هي الدافع لزيادة جهود الأساتذة في توجيه الطلبة علمياً وتربوياً ، ويخيل إليَّ أن الجامعات الإسلامية لو لم تكن قائمة فإن أي عالم سيفكر في إنشاء مدرسة أو كلية لتدريس العلوم الإسلامية ، إذ لا حياة للعالم إلاَّ وسط طلبة العلم ، يعلمهم السلوك ، ويربيهم على تعاليم الإسلام ، ويثقف

عقولهم بالقرآن والحديث وفقههما ، ويجعل الموازين الإسلامية مقياساً لهم في كل أعمالهم وأقوالهم .

فالثقافة ليست حشداً للمعلومات ، بل هي تفاعل بين الإنسان والعقيدة والفكر ، يظهر أثره في السلوك . . . فقد يحفظ الإنسان معلومات كثيرة ولكن سلوكه الاجتماعي غير مقبول ، فنظرته للآخرين فيها استعلاء واحتقار ، وتقويمه للمواقف مبني على « الأنانية » وحب الذات ، وتذوقه « للجمال » ضعيف يدل على بلادة المشاعر وضعف الإحساس ، وكلامه خال من المعاني الرقيقة والمشاعر الطيبة ، ولا تظهر فيه آثار المعلومات التي يكنزها ؟ فمثل هذا ليس مثقفاً بل هو جهاز « كمبيوتر » من نوع بسيط ورخيص لقدرته المحدودة على الاستيعاب والحفظ .

لقد فطنت أم عربية مسلمة هي السيدة أم المحدِّث المشهور « سفيان الثوري » إلى هذه الحقيقة ، وبالتالي فقد أوضحت لابنها سفيان أن يربط بين العلم والسلوك ، وإلاّ فلا نفع للعلم دون العمل .

قالـــــت :

« يا بني خذ هذه عشرة دراهم وتعلم عشرة أحاديث ، فإذا وجدتها تغير في جلستك ومشيتك وكلامك مع الناس ، فأقبل عليه وأنا أعينك بمغزلي هذا وإلاّ فاتركه ، فإني أخشى أن يكون وبالاً عليك يوم القيامة » .

فإذن الثقافة ينبغي أن تغير في الجلسة والمشية والكلام . . يعني « السلوك » وإلاّ فهي تزيد مسؤولية صاحبها في الآخرة ، وقد تكون وبالاً

عليه في الدنيا أيضاً ، إذ لن يجد مردوداً اجتماعياً وأدبياً يعادل « ثقافته العالية » حسب تصوره ـ والتي ينبغي في رأيه ـ أن تؤدي إلى تصدره !!!

وللأسف فإن ما فطنت إليه المرأة المسلمة في مطلع القرن الثاني الهجري لا يزال خافياً على كثير من المتعلمين في هذا العصر .

وقد أفاد سفيـــان من نصيحة أمه ، فواصل طريقه في طلب العلم حتى صار علماً في عصره ، وروى عنه عشرون ألفاً من الرواة ، قال رحمه الله يحكي صورة طلبه العلم في صغره ، حيث فطن المسلمون إلى أهمية طلب العلم في الصغر ، وتواصوا بذلك ، وأحضروا الصغار في حلقات العلم ، وتعهدوهم بالرعاية ، قال سفيان :

« لو رأيتني ولي عشرُ سنين ، طولي خمسةُ أشبار ، ووجهي كالدينار ، وأنا كشُعْلةِ نار ، ثيابي صغار ، وأكمامي قصار ، وذيلي بمقدار ، ونعلي كآذان الفار ، أختلفُ إلى علماء الأمصار ، كالزهري وعمرو بن دينار ، أجلس بينهم كالمسمار ، محبرتي كالجوزة ، ومقلمتي كالموزة ، وقلمي كاللوزة ، فإذا أتيتُ ، قالوا : أوسعوا للشيخ الصغير : ثم ضحك » (سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٠٤) .

مهمات أساسية أمام الجامعات الإسلامية

لا شك أن المهام التعليمية في الجامعات الإسلامية تمر بظروف صعبة ، فأمامها مهمة خطيرة هي :

تكوين هيئة تدريس جامعية تكفي لسد احتياجات التعليم الإسلامي ، وإعادة صياغة أو تأسيس العلوم التربوية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية في ظل النظرة الإسلامية الكلية للكون والحياة والإنسان ، وتقديم الأدب العربي المعاصر ونظرياته النقدية في إطار إسلامي ، وعرض الدراسات الإسلامية الشرعية بالاستفادة من الوسائل التعليمية المتقدمة ، وبروح تمس المشاكل المعاصرة ولا تغيب عن الحاضر متخلية عن معالجة المشاكل المعاصرة ، لتعالج مشاكل القرن الثاني والثالث الهجريين ، وبذلك تمضي في متاهات تستنفدُ طاقاتها دون جدوىٰ ، ودفع هذه الدراسات في مسارات واقعية ، فلا ينبغي أن يوغل علم العقيدة في مهاجمة مدارس الكلام والمنطقيين والفلاسفة الذين كان لهم دور في القرون الأولى متخلياً عن نقد الفلسفات الحديثة والتيارات المعاصرة ، وبذلك يغرق الطلبة في معارك وهمية ، تشبه معركة « دون كيشوت » مع الطواحين ، حتى إذا ما واجهوا المعركة الحقيقية أحسوا بالإخفاق والعجز لأنهم لا يمتلكون « الأسلحة اللازمة » .

إن التركيز على عقيدة التوحيد ينبغي أن يأخذ الحيز الأكبر بدل

استعراض جزئيات من مقالات الفرق المنحرفة والتي لم تعد مطروحة في ساحة الفكر المعاصر .

إن مواجهة الواقع وتلبية احتياجاته من أهم مستلزمات التعليم الإسلامي في الوقت الحاضر ، ليبتعد عن الدوران في حلقات مفرغة ، وليلبي متطلبات التنمية في العالم الإسلامي ويقودها .

ومن المهـام الأساسية أيضاً :

وضع استراتيجية للدراسات الإسلامية وللثقافة الإسلامية ترتكز على ما يلي :

١ ـ دراسة ماضي وحاضر الثقافة الإسلامية ، دراسة نقدية لاستجلاء مواطن القوة والضعف ، والإفادة من الإيجابيات والتخلي عن السلبيات .

٢ ـ دراسة خصائص الثقافة الإسلامية ، ومدى ملاءمة طرق التدريس المعاصرة لها .

٣ ـ مراعاة مبدأ تراكم المعرفة في النتاج الحديث ، وتحديد مدى توافر الأصالة والمعاصرة فيه .

ولا يتم ذلك إلاَّ بإيجاد حركة نقدية واعية وواسعة تعين على التقويم ، وترصد المسيرة الثقافية وتبين مـدى تطابقهـا مع الاستراتيجية المرسومة .

٤ ـ الإفادة من تكنولوجيا التعليم على نطاق واسع في التعليم الإسلامي ومراكز البحوث الإسلامية .

٥ ـ وضع ضوابط محددة للانفتاح على الثقافات العالمية للاستفادة من تجربة المجتمع الإسلامي الأول في مواجهة الحضارات العالمية .

المهمـــة الأولى :

لعلَّ من المفيد إلقاء نظرة على بعض هذه المهمات الخطيرة دون الدخول في تفاصيل كثيرة تحتاج إلى دراسات مستقلة ، وتشترك فيها لجان متخصصة ، فالمهمة الأولى التي أشرت إليها ، وهي : إيجاد هيئة تدريس تتمكن من تلبية احتياجات التعليم الإسلامي ، تعتبر من أخطر المهام ، خاصة إذا لاحظنا ما تعانيه الجامعات الإسلامية ـ على قلتها في العالم الإسلامي ـ من نقص كبير في المتخصصين في الدراسات الإسلامية . . وهي مشكلة تواجه التعليم العام كله حيث النقص في أعداد المعلمين والمدرسين والأساتذة الجامعيين ، ففي الوقت الذي يتوفر في البلاد الأوروبية والاتحاد السوفييتي أستاذ لكل ثلاثة عشر طالباً ، وفي أمريكا اللاتينية أستاذ لكل أحد عشر طالباً ، وفي البلاد الآسيوية أستاذ لكل خمسة عشر طالباً ، وفي أفريقيا أستاذ لكل ستة عشر طالباً ، يوجد في البلاد العربية أستاذ لكل تسعة عشر طالباً ، فهي أقل المناطق قدرة على توفير الأساتذة ، وتقل النسبة كثيراً إذا جئنا إلى التعليم الإسلامي .

وهذا يتطلب مجهوداً كبيراً لسد النقص الحالي الذي يؤثر على مستوى التعليم في بلادنا من ناحية ، ولمواجهة تضاعف السكان في البلاد العربية والعالم الإسلامي بعد ثمانية عشر عاماً حيث يقدر أن عدد السكان في البلاد العربية وحدها سيصل إلى مائتي مليون نسمة سنة (٢٠٠٠م) في حين أنه الآن مائة وخمسون مليون نسمة ، ومعنى ذلك أننا نحتاج خلال عقدين فقط أن نزيد أعضاء هيئة التدريس إلى أكثر من الضعف ، لسد حاجة المستقبل القريب ، فهل أعددنا للأمر عدته أم سيزيد العجز وترتفع نسبة تفوق الآخرين علينا ؟؟

المهمـــة الثانيـــة :

وهي : إعادة صياغة مناهج العلوم الاجتماعية ، من تاريخ واجتماع واقتصاد وسياسة وتربية وعلم نفس ، وكذلك الأدب ونظرياته النقدية وفق مبادىء الإسلام . . فلا شك أن الحضارة الأوروبية قطعت شوطاً واسعاً في هذا السبيل ، ولا يمكن البدء بمرحلة تأسيس من الصفر ، فليس كل نتاج الحضارة الغربية في هذا السبيل خطأ وباطلاً ، خاصة ما يرتكز على الكشوف الطبيعية والتجارب المختبرية ، بل إن الفلسفة التي تطبعه والروح المهيمنة عليه بعيدة عن الإيمان بالله عز وجل ورسالاته ، ولذلك فقد عبرت عن المهمة « بإعادة صياغة » بدل « تأسيس » .

ولا شك أن وضع الخطط والبرامج التفصيلية لإقرار ما يمكن إقراره ،

وإبعاد ما يلزم إبعاده يحتاج إلى اللجان المتخصصة في كل علم ؛ وأن الأقسام المتخصصة في الجامعات الإسلامية ينبغي أن تنهض لحمل هذه الأعباء ، فقسم التربية يسعى إلى تطوير نظرية تربوية إسلامية تنبثق عن فهم الكتاب والسنة ، واستلهام تراث الفكر التربوي الإسلامي مع الإفادة من المعطيات السليمة للنظريات التربوية المعاصرة بعد صبغها بصبغة الإسلام ، فالنظريات التربوية الغربية انبثقت عن فلسفات مادية ، وتصورات علمانية ، ومعظم فلاسفتها من الماديين والعلمانيين .

ونظرة إلى واقع المجتمعات الغربية تكفل الحكم على معطيات التربية الغربية : التحلل الخلقي والإحساس « بالضياع » ، والرغبة في « العدم » ، وتصاعد « الجريمة » ، وتحدي « القانون » ، و « العنف » ، و « شريعة الغاب » في التعامل مع الآخرين .

وبعد : فهل نحتاج إلى تقويم للنظريات التربوية بعد أن ظهرت ثمارها المسمومة في عالم اليوم ؟!!! . .

لقد اعتبر « فرويد » الإنسان عبداً للجنس الذي يتحكم في فكره ومشاعره وسلوكه ، ويكوِّن محور نشاطه الخاص والعام .

واعتبر « ماركس » الاقتصاد هو محور هذا النشاط ، وكلاهما يتأثر بنظرية « داروين » عن أصل الإنسان والتي تهبط به إلى « الحيوانية » ، ولذلك فتغير مشاعره وفكره وسلوكه كلها ترتبط بهذه النظرية ، فهو إما أن يدور بنشاطه حول محور « الجنس » أو « الاقتصاد » .

أما نظرة الإســـلام ففيها تكريم الإنسان بوصفه مخلوقاً عاقلاً مكلفاً :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ . . . ﴾ (الإسراء : ٧٠) ، وقد خلق ابتداءً بهذه الصورة ، ولم يتطور عن « قرد » وبالتالي فله خصائصه المميزة في عالم الحيوان ، من روح وعقل مما رتب عليه تبعات في هذه الدنيا ، أعظمها : الإيمان بالله وتوحيده ، وعبادته . إن أي سبر للآيات القرآنية والأحاديث النبوية مع الإفادة من الدراسات العلمية الحديثة سيمكن من تخليص هذه الحقائق العلمية في النفس والاجتماع والتربية من روحها الغربية العلمانية ، وجذورها الوثنية اليونانية ، ويمكّن من بناء نظرية تربوية إسلامية مستقلة ، محكومة بالكتاب والسنة خاصة وأن لدينا تاريخاً علمياً حافلاً ، وتدريساً جامعياً مبكراً ، وتقاليد تدريسية عريقة ظهرت في الجامعات الإسلامية في عصور الإسلام الذهبية ، وضمنتها المؤلفات التي كتبها أسلافنا ، مثل : سحنون في : (آداب المعلمين) والقابسي في : (الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين) والخطيب البغدادي في : (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) وابن جماعة في : (تذكرة السامع والمتكلم) ، وغيرها كثير ، مما يمكننا من تصور المفاهيم التربوية الإسلامية لنعمل على تطويرها مستفيدين من تجارب الفكر التربوي المعاصر بعد عرضها على المقاييس الإسلامية .

وكذلك فإن أقسام علم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ مسؤولة عن صوغ

النظريات الإسلامية في هذه المجالات ، فالمصطلحات العصرية وإن كانت جديدة لكن الكثير من مضامينها موجود في الإسلام ، وإبراز ذلك يحتاج إلى استقراء التراث للوصول إلى المبادىء والنظريات ، فإذا كانت نظرية استقلال السلطات تنسب إلى « مونتسكيو » فإن الإسلام أقر استقلال السلطة القضائية قبل « مونتسكيو » بأكثر من عشرة قرون ، وكان تعيين القضاة وقبول استقالتهم يتم من قبل الخليفة نفسه ، ولا يخضع لولاة الأمصار ، بل إن الخليفة نفسه لم يكن قادراً بعد تعيينهم على التدخل في شؤون القضاء وأحكام القضاة ، وهذا الأمر يصْدُق على كثير من النظريات والمبادىء العصرية .

وقد ظهرت دراسات عديدة حول إعادة صياغة التاريخ الإسلامي والعالمي من منظور إسلامي ، والإفادة من مناهج النقد التي ألفها المحدثون تحت عنوان « مصطلح الحديث » فلا داعي لتناول هذا الموضوع الذي اتضحت أبعاده أكثر من بقية العلوم الأخرىٰ مما يهيىء للدخول في التفاصيل ووضع المناهج من قبل المتخصصين .

وأما ما يتعلق بتقديم الأدب العربي المعاصر ونظرياته النقدية في إطار إسلامي يجمع بين الأصالة والمعاصرة ، فنحن أمة لها تراث خصب يقدر أن يشدها إلى ماضيها ، ويكسبها شخصية متميزة في حاضرها ، ولكننا لم نعط التراث حقه من الدراسة ، ولم نسع بالقدر الكافي إلى نقده وتمحيصه وتقويمه ، ولم نبنِ على جذوره القوية حركتنا الأدبية والفكرية المعاصرة ، وربما بسبب ما أصاب حضارتنا العربية والإسلامية من ركود

امتد قروناً طويلة لم تعد فيه تمتلك زمام المبادرة ، فتخلت عن مركز الريادة والقيادة ، وفتحت أجيالنا المعاصرة عيونها على حركة فكرية تقتبس من التيارات الأدبية والفكرية الغربية بنهم شديد ، وتقدم الغذاء الجديد بسُمِّه ودسمه لملايين الجياع إلى الفكرة الجديدة ، والرأي المبتكر ، والعرض الجديد . . وكانت الحضارة الغربية قد وصلت إلى ذروة الإنتاج العلمي والأدبي ، وتمخضت عن آلاف القصص والمسرحيات ، ومعطيات الفكر الأخرىٰ مستفيدة من النمو والنضج المادي للمدنية الغربية التي اعتمدت على إحياء علوم الإغريق وفلسفاتهم في أواخر العصور الوسطى الأوروبية ، أي : في الفترة التي عرفت بعصر النهضة ، والذي يبدأ من القرن الخامس عشر الميلادي ، ويرىٰ « هومر » أن عصر الإحياء سبق عصر النهضة ، وبدأ من القرن الثاني عشر ، وبعد الإحياء للعلوم ودراستها ونقدها حصلت الإضافات الضخمة ، واستفاد الأوروبيون من منهج البحث التجريبي عند المسلمين فجمعوا بين الرؤية الفلسفية والمنهج العلمي الإسلامي . . . فولدت الحضارة الجديدة بمنهج بحث علمي إسلامي ، وروح فلسفية عادية مكتسية بغلالة شفافة من النُصرانية ، سرعان ما نزعتها فصبغت العلوم والآداب ، وخاصة في القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين ، بصبغة مادية معادية للدين .

لقد أوضح الفيلسوف الإنجليزي « برتراند رسل » هذا الامتزاج بين الرؤىٰ الفلسفية اليونانية والمنهج العلمي الإسلامي ، وما ولده هذا

الامتزاج من انبعاث المدنية الأوروبية الحاضرة[1] .

ولا شك أن التقدم العلمي والتكنولوجي الضخم الذي صاحبه تقدم أقل في مجالات العلوم الإنسانية التربوية والنفسية أثر على معطيات الفكر المختلفة ، كالمذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية ، والاتجاهات النقدية ، ومقاييس التقويم ، والقيم الجمالية والفنية والخلقية تأثيراً عميقاً ، واستمر الركود يخيم على دار الإسلام حتى أواخر القرن التاسع عشر حين ظهرت صيحات الإصلاح الأولى . . ولكن الركود الفكري والاجتماعي الطويل ، والتمزق السياسي ، والصراعات المختلفة أعاقت « دار الإسلام » عن اللحاق بالآخرين ، وتمزقت الشخصية الإسلامية التي صارت تعاني من عقدة النقص أمام التقدم الغربي الضخم . .

وظهرت حركة نقل واقتباس في الثقافة والآداب دون تمييز ولا انتقاء ، وأقبل الجياع على مائدة دسمة حافلة لكنها مسمومة ، ولم يفطن معظمهم للسموم أمام حلاوة المذاق . . أما الذين فطنوا فلم يتمكنوا من سد الفراغ

---

(١) لقد أقر « برتراند رسل » بأن العرب كانوا سادة التجريب ، ولكنه لم يفطن إلى أنهم فعلوا ذلك في إطار التصور القرآني بدلاً من التنظير اليوناني ، حيث إن القرآن الكريم هو الذي لفت نظر المسلمين إلى الطبيعة وقواها الظاهرة والكامنة ، ودعاهم إلى الكشف عن أسرارها وقوانينها عن طريق الاختبار والتجريب باستخدام العقل والحواس ، مبيناً أن الطبيعة مسخرة للإنسان الذي من واجبه التعرف على قوانينها والإفادة من تسخيرها له .

وتقديم طعام جديد إلاً محاولات يسيرة لا تغني من جوع ، واستمرت العقود تتوالى ، وظهر الغثيان ، وعرف الكثيرون بأن الطعام مسموم ولا بد من البديل ، والبديل هو الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي والآداب الإسلامية . . . ولكن الجذر الذي لم يُرْوَ منذ قرون إلاَّ بالقليل اليسير يحتاج إلى أن يغذىٰ ليقوىٰ على حمل الشجرة الطيبة ، فكيف السبيل إلى ذلك ؟

كيف يمكن إيجاد زاد فكري يملأ الفراغ ، ويشبع الجياع ، ويكون بديلاً عن الشجرة الخبيثة ؟ إن العودة إلى الجذر ضرورة ولكن تركه ينمو نمواً هادئاً دون طفرات يحتاج إلى قرون ، فهل يمكن أن نفيد من معطيات التقدم الإنساني ، ونفيد من تجارب الآخرين في رفده وتقويته ليحمل الشجرة الطيبة ، ويلقي بالثمار النضيجة في وقت قريب ؟ وهل يؤثر ذلك على أصالتنا وتميزنا ؟

وإذا أردنا النفاذ إلى النماذج لئلا يختلف تفسير الرؤىٰ العامة المطلقة ، فإنه في نطاق الأدب ظهرت تحليلات عميقة للنفس الإنسانية بسبب نمو علم النفس بمدارسه المختلفة ، وخدم علم الاجتماع القصة والشعر بتعميق المضمون ، ولا شك أن معطيات هذه العلوم ليست سلبية دائماً ، وإن ارتبطت بفلسفة هدامة ، لكن كثيراً من الحقائق والتحليلات صحيحة ومحايدة ، شأنها شأن العلوم الرياضية والطبيعية ، ويمكن الإفادة منها في تعميق مضامين الأدبيات الإسلامية ؛ نعم ما المانع من الأشكال الفنية ،

والمضامين العميقة في تصور النفس والكون ، وطرق الموضوعات الجديدة المتفقة مع بنائنا الفكري المتميز وثقافتنا الإسلامية الأصيلة ؟ ما المانع من الاقتباس المنتقى إذا كان صالحاً أياً كان مصدره ؟ ما المانع من الانفتاح على النتاج الإنساني العالمي مع الحفاظ على الرؤية الإسلامية والمقاييس الإسلامية ؟

هل نخشى على الأصـــالة ؟

لقد انفتح العلمانيون على الثقافة العالمية ، ونقلوها للجياع وملؤوا بها الفراغ ، ولا يزالون نشيطين في تعميق الاغتراب ، وإيجاد الانقطاع بيننا وبين جذورنا العربية الإسلامية .

ما الضرر في الإفادة من الخيال العلمي والرؤىٰ المستقبلية عند أدباء العالم ؟ لقد تمكن « ويلز » من التنبيه إلى خطورة سيطرة الآلة على الإنسان ، وتوقع ظهور الكمبيوتر وهيمنته على عالم المستقبل ، وذلك من أكثر من نصف قرن !

ما المانع من الإفادة في الشكل من الحلقات القصصية التي تبدو كل حلقة منها قصة كاملة ، وإذا أدخلت ببعضها شكلت قصة واحدة طويلة ، وهو لون سبق إليه الكاتب الأمريكي « جون شتاينبك » صاحب قصة « أفول القمر » ؟

ما الذي يمكن أن يحدث لو تم الانتقاء والاقتباس في الشكل ، وعمقت المضامين من تجارب الآخرين على أيدي أدباء مسلمين تربوا على معاني الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، وتمكنوا من حيازة المستوىٰ الفني العالي شكلًا ومضموناً ؟ ألاَّ يسد ذلك الفراغ الذي ولده انحسار الحضارة الإسلامية ، وتوقف الإبداع في الحركة الفكرية عدة قرون ؟ ولو فعلنا ذلك هل كنا نعاني من الاغتراب الشديد ، والإحساس بالضياع ، وفقدان الهوية كما هو الحال في الجيل المعاصر الذي تسلم زمامَه دعاةُ الاغتراب ؟! ولا ندري ماذا سيكون حال الأجيال اللاحقة إن لم نتمكن من طبع نتاجنا الأدبي والفكري بطابع الأصالة والإبداع الفني ليتمكن من الوقوف أمام سبل أدب الاغتراب ؟ إنها دعوة إلى المفكرين والأدباء المسلمين للتفنن في الشكل ، والتعمق في المضمون ، والجمع بين الأصالة والمعاصرة قبل فوات الأوان .

أما ما يتعلق بوضع استراتيجية الثقافة الإسلامية من أجل مراعاة مبدأ تراكم المعرفة في النتاج الجديد حفاظاً على الطاقات ، ورغبة في الوصول إلى نتائج مثمرة تخدم القضية الإسلامية في هذا العصر ، فلا بد أن يبنى ذلك على دراسة الواقع التاريخي للثقافة الإسلامية إلى جانب واقعها المعاصر .

فإلى أي مدىً راعى المؤلفون المسلمون مبدأ الإضافة إلى المعرفة ؟ في القرون الهجرية الأربعة الأولى حيث تمثل عصر الازدهار الحضاري ، نجد ذلك في كثير من المؤلفات المبتكرة في شتى الحقول ،

من لغة وأدب وتاريخ وفقه وأصول فقه وحديث وتفسير . . . إلخ ، وفي العصور التالية يضعف الابتكار ، ويكثر التقليد والتكرار ، حتى إننا لا نكاد نلمس بوضوح مبدأ الإضافة العلمية من قبل اللاحق إلى السابق إلاَّ في أعمال نادرة تظهر كوميض البرق في دياجير الظلام ، ومن ذلك الوميض : شروع الحافظ العراقي في إكمال بناء موسوعة السنة النبوية ، وذلك بإضافة الزوائد الحديثية على الكتب الستة ، حيث نهض بعمل كُتب الزوائد تلاميذه : الهيثمي وابن حجر ، حيث إن فكرة الإضافة العلمية والسعي إلى التكامل والتنسيق في الأعمال العلمية والنتاج الفكري كان واضحاً في عمل كتب الزوائد في الحديث .

وكذلك كانت فكرة التكامل واضحة عند بعض العلماء ، كما يظهر من كلام السبكي [ت ٧٧١هـ] عن الحافظ البيهقي حيث بين أنه آخر من جمع النصوص التي استند عليها فقه الإمام الشافعي ، وعلل ذلك بقوله : « لذلك استوعب أكثر ما في كتب السابقين ، ولا أعرف أحداً بعده جمع النصوص لأنه سد الباب على من بعده » .

ولكن هذا الوضوح في تصور هذا المبدأ الهام يقتصر على قِلة قليلة من العلماء ، وأما الغالب على الحركة الفكرية بعد القرن الرابع فهو اتسامُ النتاج الفكري بالتكرار والاقتباس والتقليد والسرقات الأدبية الكثيرة ، وأحياناً سرقة كتاب برمته وليس مجرد بيت شعر أو قصيدة .

أفرد الترمذي [ت ٢٧٩هـ] شمائل المصطفى ﷺ في كتاب ، فجاء

بعده أكثر من ثلاثة عشر مؤلفاً شرحوها فقط ! وكتب القاضي عِياض [٥٤٢هـ] كتابه الجليل (الشفا بتعريف حقوق المصطفى] فإذا بأكثر من عشرين مؤلف كتبوا في اختصاره أو شرحه !! وألَّف أحمد بن فارس اللغوي [ت ٣٩٥هـ] كتاب (المغني في أسماء النبي ﷺ) ، كان ذلك في القرن الرابع الهجري والتعريف بأسماء النبي ﷺ أمر نافع لا شك ، وحصرها عمل علمي ، لأهمية شخصية الرسول ﷺ في حياة المسلمين ، ولكن منذ القرن السابع الهجري وحتى القرن الرابع عشر ألَّف المسلمون تسعة وعشرين كتاباً في أسماء النبي ﷺ وشرحها ونظمها[٢] . .

وليت هذه هي كل الأمثلة ، فهناك عشرات الأمثلة على هذه الظاهرة ، فقد أُلِّف خمسة وعشرون كتاباً في نسب المصطفى ﷺ منذ القرن الخامس إلى القرن الرابع عشر ، ولم يخصص لهذا الأمر إلاَّ مؤلَّف واحد في القرون السابقة الأولى كتبه الطبري [ت ٣٦٠هـ] ، مع أن كتب الأنساب العربية وهي كثيرة ، عُنيت بنسبه عليه الصلاة والسلام ، وهذه المؤلفات وإن عكست مدىٰ حب وتعلق المسلمين بنبيهم ﷺ ، ولكن أليس هذا العمل مجرد تقليد وضياع للجهود ؟ فحياة الرسول ﷺ تشتمل على جوانب أخرىٰ أكثر أهمية ، وتحتاج إلى عقل وقلب يُجَلِّيها تحقيقاً

---

(٢) انظر معجم ما أُلِّف عن رسول الله ﷺ للدكتور صلاح الدين المنجد : ص ٣٧ ـ ٤٠ .

للاقتداء به ، كما أمر الله تعالى عباده ، فهذه إذن ظاهرة سلبية في عصور الانحطاط الحضاري .

إن تراكم المعرفة يحتاج إلى التخطيط بحيث يبني اللاحق على السابق ، ويضيف المتأخر على المتقدم ، وبذلك تتراكم المعرفة ويحصل التقدم العلمي ، إن ذلك لا يعني أن المؤلفين في القرون المتعاقبة التي تلت القرون الهجرية الخمسة الأولى لم يضيفوا شيئاً إلى معرفة أسلافهم ، ولكن نسبة التراكم العلمي ضئيلة إذا قيست بطول الفترة الزمنية (تسعة قرون) وكثرة المصنفات التي غلب عليها التقليد والاقتباس ، والشرح اللفظي ، والتلخيص لأمهات كتب العلوم بشكل تعليقات تعطى للطلبة . . .

ولكن مما لا شك فيه أن بعض المؤلفين تمكن من تقديم إضافات علمية واضحة ، من ذلك : إضافة الغزالي إلى علم أصول الفقه في كتابه (شفاء الغليل) حيث توسع في مسالك العلة بحيث قدم كتاباً ضخماً يوازي في حجمه كتب أصول الفقه الشاملة التي تتناول سائر المسائل الأصولية ، مع أنه يركز على جانب واحد من هذا العلم الهام ، وما قدمه ابن رجب من إضافة إلى علم مصطلح الحديث في كتابه (شرح علل الترمذي) عندما قَعَّد القواعد النقدية للوصول إلى العلل التي تضعف الأحاديث النبوية .

وهناك نماذج أخرىٰ ، مثل : الأعمال النقدية للحافظ الذهبي ، وللحافظ ابن حجر العسقلاني وغيرهما . . .

بل إن عمل الذيول على الكتب هو نمط يوضح الانتباه إلى التكامل في الأعمال العلمية وعدم التكرار وإضاعة الجهود ، وهذا واضح في المؤلفات التاريخية مثل : « ذيول تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي .

إن تاريخ الحركة الفكرية في الإسلام ينبغي أن يخص بدراسة ناقدة تجلي الإيجابيات والسلبيات ، وتعلل ذلك قدر الإمكان . إن الظاهرة السلبية التي أشرت إليها يمكن أن تعلل بصعوبة الاتصال بين العلماء المسلمين في القرون الخالية مما يؤدي إلى عدم معرفتهم بنتاج بعضهم ، هذا بالنسبة للمتعاصرين منهم ، وصعوبة الوقوف على الكتب في تلك العصور التي لم تتوفر فيها وسائل الطباعة والنشر ، بل كان الوراقون ينسخون نسخاً قليلة من كل كتاب ، وكانت أسعار الكتب المنسوخة عالية ، فلا يتمكن الكثيرون من شرائها ، وكان العديد من العلماء ينسخون الكتب لأنفسهم ، ربما حرصاً على الإتقان ، وربما توفيراً للمال أيضاً ، ولكن كما ذكرت يبقى التقليد والتلخيص والشرح هو الغالب على مؤلفات القرون التي أعقبت عصر ازدهار الحضارة الإسلامية . . . ولو كتب للحركة الفكرية الاستمرار في النمو والتكامل ، وترسم مسالك الأوائل ، لكانت القواعد النقدية ، والأشكال الفنية ، والمذاهب الأدبية قد تطورت ضمن إطار الحضارة الإسلامية ، بروحها وعلومها ، ولم نقع في هذا التيه والفراغ الذي صرنا نملؤه بمعطيات غريبة .

المهمـــة الثالثـــة :
وضع استراتيجية للبحوث الإسلامية

ومن أجل ذلك لا بد من وضع استراتيجية للبحث في العلوم الإسلامية من أجل نموها ولحاقها بالفكر المعاصر من حيث تناول مشاكل الحياة المعاصرة بشمول وعمق ، وإبداع وابتكار ، ويحتاج ذلك إلى رسم المسارات ، وتحديد الأهداف ، وتجنيد الوسائل .

إن عدم وجود هذه الخطة في الوقت الحاضر أضاع جهوداً ضخمة أسهمت في تراكم الكتب التي تكرر الأفكار نفسها ، وربما بمستويات متقاربة أيضاً ، وقد ولد ذلك استنزافاً لأموال وأوقات القراء المساكين الذين يقبلون على الكتب الإسلامية أكثر من سواها ، ولكنهم يصابون بخيبة الأمل في غالب الحالات عندما لا تضيف الكتب الجديدة إلى معلوماتهم جديداً ، ولا تقدم كشافاً قوياً لواقع الجاهلية المعاصرة ، ولا تغذيهم بزاد روحي يشبع نفوسهم المتطلعة بشوق ولهفة .

غياب حركة النقد الواعي والحاجة إليها

إن الثقافة الإسلامية تمر بأزمة قوية تتمثل في غياب حركة النقد الواعية التي تحكم على الأعمال الفكرية والأدبية ، مما يوضح الإيجابيات والسلبيات أمام المفكرين فضلاً عن جمهور القراء . .

إن غياب حركة النقد أدىٰ إلى فوضى فكرية تتمثل في ضياع مقاييس التقويم ، وكثرة التكرار في الأشكال والمضامين ، وغلبة السطو الأدبي من « الجدد » على « القدامى » ومن « المبتدئين » على « الراسخين » .

واختلطت وسط الركام الضخم من الكتابات التي تملأ المكتبات . . اختلطت الأعمال « المبدعة » الأصيلة بالكتابات الغثة المتهافتة . . وتحكمت المقاييس الكمية ، فيقال : فلان كتب عشرين كتاباً ، والآخر لم يؤلف سوىٰ كتاب واحد ، وقد يكون صاحب الكتاب الواحد أجدر بالتكريم والإكبار لما يتميز به ذهنه من خصوبة ، وفكره من أصالة وقلمه من إبداع ، وليس لصاحب الكتب العشرين نصيب من ذلك .

إن وجود الحركة النقدية كفيل بمسح الأعمال الفكرية والأدبية بشمول ، وتقويمها بدقة ليعطىٰ كل ذي حق حقه . . ولتتضح مقاييس التقويم بدقة ، وتستبين معالم الطريق نحو النهضة بوضوح .

ولكن كيـــف الســبيل إلى ذلك ؟

إن الإحساس بالحاجة الملحة إلى النقد الواعي سيؤدي إلى احترام

كتابات النقاد ، ووضع النقاد في المكان اللائق بهم ، وتكريمهم اجتماعياً ، ودعمهم مادياً مع الإعلان عن هذا الاعتزاز . . . والنقد ملكة وفن وخلق ، فلا بد من وجود الاستعداد الكافي إلى جانب التشبع بالدراسات النقدية ، وبالمقاييس التقويمية ، وذلك للقدرة على تذوق العمل الأدبي والفكري ثم الحكم عليه بإنصاف واعتدال دون إفراط أو تفريط ، ودون التأثر بالعلاقات الاجتماعية والمجاملات الشخصية منها والعامة ، مثل : مجاملة الرأي العام والتجاوب مع اتجاهاته .

إن النقد في مجتمعنا يحتاج إلى النقاد الذين يجمعون بين القدرة الفنية وقوة الشخصية للتمكن من تخطي الظروف الصعبة التي تلوي الأعناق بالترغيب مرة والترهيب أخرىٰ لعدم الجهر بالرأي الحر ، والحكم المجرد ، والتقويم الدقيق . . . وخاصة ونحن في بداية الطريق .

التعليم الإسلامي .. وتكنولوجيا التعليم

لا يزال التعليم الإسلامي يستخدم طرقاً بدائية بعيدة عن الإفادة من تكنولوجيا التعليم التي تستخدمها الجامعات المتقدمة في عالمنا المعاصر ، كما تستخدمها مراكز البحث العلمي المرتبطة بالجامعات والمستقلة عنها ؟

فما أثر ذلك على مستوى البحوث الإسلامية ، ومستوىٰ التعليم الإسلامي ؟

إن الطالب في الجامعات الإسلامية يحتاج إلى عدة أشهر ليتمكن من جرد كتاب « وَفَيَات الأعيان لابن خلكان » للحصول على معلومات معينة ، بينما يتمكن باحث آخر في باريس مثلاً من الحصول على المعلومات نفسها خلال خمس دقائق فقط ، لأن جهاز الكمبيوتر التابع لمعهد الأبحاث وتاريخ النصوص بباريس قد غذي بكتاب « وفيات الأعيان لابن خلكان » ، وصار يتمكن من الإجابة المدونة على أسئلة الباحثين المتنوعة .

« ويهدف المشروع الذي يتبناه القسم العربي في هذا المعهد ، وتشارك فيه عدة دول ، إلى تصنيف وفهرسة كل الشخصيات التي برزت في العصور الوسطى للإسلام وذلك في حقل السير الشخصية والتاريخية والجغرافية ، بالإضافة إلى ما يتعلق بهذه التراجم من معلومات شخصية » وقد بدأوا بتغذية الكمبيوتر منذ بضع سنوات ، ولا شك أن ذلك سيعطيهم قدرات هائلة على التأليف السريع والموثق ، ويقوي موقفهم العلمي في الدراسات الإسلامية مما يتهدد بزيادة خطر الغزو الفكري في المستقبل ، ويعظم من قيمة مؤلفاتهم .

إن وجود مثل هذا الجهاز يمكِّن الباحثين بالإضافة للحصول على المعلومات من صنع الفهارس وغيرها من الإنجازات العلمية بصو ة متقنة وسريعة توفر الوقت والجهد ، ويلاحظ أن الدول المتقدمة تقنياً اعتمدت معطيات العصر العلمية في التعليم ، مثلاً : في الولايات المتحدة لكل أربعمائة طالب في مراحل التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي جهاز

كمبيوتر يستخدم في الأغراض التعليمية ، وبالطبع فإن النسبة تزداد في المرحلة الجامعية وما بعدها من الدراسات العليا ، في حين أن العديد من جامعاتنا لمّا تبدأ بعد في الإفادة من هذه المعطيات .

وبالطبع لا بد من دراسة خصائص هذه الأجهزة وآثارها على الإنسان في المستقبل من حيث قدرته على استعادة المعلومات من الذاكرة ، وهل تتأثر بالاعتماد على الكمبيوتر . . ومرانه الذهني في الرياضيات مثلاً ومدى تأثره بعدم حفظه ربما حتى لجداول الضرب البسيطة خاصة عندما يسمح للطالب بإدخال الآلة الحاسبة إلى الامتحانات . . إذنْ ستتأثر قدرات الذاكرة والمران العقلي ، وما هو تأثير ذلك على تدريس العلوم الإسلامية بالذات ؟ هنا لا بد من الإشارة إلى ضرورة مراعاة خصائص الثقافة الإسلامية ومدى ملاءمة طرق التدريس المعاصرة لها ، وهل يمكن أن تفي طرق التدريس المعاصرة باحتياجات الثقافة الإسلامية ؟ وإن كانت تفي بذلك فهل نقتصر على طرق التدريس القديمة التي كانت سائدة في عصور ازدهارنا الحضاري واستمرت دون تطوير في الفترات التي أعقبت ذلك حتى مطلع القرن العشرين ؟

وهل يمكن الإفادة من الجمع بين الأصالة والمعاصرة في طرق التدريس لمواءمة الثقافة الإسلامية بخصائصها المتميزة ؟

إن الإبقاء على الطرق التقليدية في تدريس العلوم الإسلامية لا يحقق الأهداف التربوية في إيجاد المتعلم الذي يمكنه التكيف لظروف العالم المعاصر المتغيرة بسرعة فائقة ، لأنها ترتكز على الحفظ للمتون

والانغمار في الشروح بحيث لا يفرغ المتعلم للإحاطة بمشاكل الحياة المعاصرة ، ولا تتكون لديه النظرة الشمولية .

ولكن الأخذ بطرق التدريس المعاصرة والقائمة على تعويد المتعلم على التفكير والاستنتاج بدلاً من الحفظ مع إهمال الحفظ لا يتلاءم مع خصائص الثقافة الإسلامية ، فلا بد للمثقف المسلم من حفظ قدر من لقرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وحفظ بعض القواعد النحوية والأصولية والفقهية وبعض قواعد مصطلح الحديث ، وتظهر أهمية الحفظ بصورة خاصة بالطبع في تدريس علم القراءات ، فالقراءات لا يمكن لطالبها الحصول عليها إلاً عن طريق التلقي من لفظ « القارىء الشيخ » الذي يمتلك إجازة بالقراءات من شيوخه ، ولا يمكن التلقي من لفظ الشيخ إلاً بعد حفظ القرآن الكريم ، وحقاً فإن هذا الأنموذج شاذ ، ولكنني اخترته وأبرزته لأنه يوضح خصائص تمتاز بها الثقافة الإسلامية لا بد من مراعاتها عند اختيار طرق التدريس الملائمة لها .

ويبدو أنه لا يمكن الاستمرار في طرق تدريس تقليدية تهتم بالحفظ وحده لتكوين المثقف المعاصر الذي يستطيع إثبات وجوده في الحياة الحديثة وأخذ مكانه فيها .

ثم لا بد من اعتماد أسلوب التعليم الذاتي والموازنة بين التخصيص الدقيق مع الترشيد لضخامة المكتبة وبين الثقافة العامة ، إذ ينبغي تجنيب شبابنا الضياع وسط المكتبة الذاتية الضخمة والمليئة بالغث والسمين معاً ، ولا بد من وضع قائمة معتمدة من المؤلفات العميقة الناضجة يتم

انتقاؤها بدقة وذكاء من بين كتب التراث والدراسات المعاصرة لتكوين ثقافة الدارس ، وعدم تركه أمام التجارب التي تضيع وقته وتمتص جهده . لقد سبق بعض علماء السلف إلى وضع قائمة بالكتب الأساسية أو الأكثر أهمية لطالب العلم كما فعل الخطيب البغدادي في الجامع[٣] ، للتركيز على تكوين ذهنية وملكة لدى الطالب تجعله قادراً على النقد ، متمكناً من التمييز وفق مقاييس محددة واضحة ، وبذلك يصبح قادراً على انتقاء الأفكار والكتب ، كذلك لا بد من إعانته على تحقيق رغباته وعدم إغراقه في جزئيات العلوم وذلك باعتماد أسلوب « التعليم الذاتي » الذي يؤدي فيه المتعلم دوراً كبيراً .

إنه لا بد للمثقف المسلم من التصور الشامل للحياة المعاصرة ، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ، إذ ينبغي أن يُهيأ ليكون عنصراً قيادياً في المجتمع ، فلا يمكن أن يعزل عن مشاكل وأحداث المجتمع الذي سيحتل موقعاً توجيهياً فيه ، ولا شك أن حصر نشاطه في دراسة مشكلة معينة محدودة أو تحقيق نص لكتاب من التراث لسنوات عديدة قد يؤدي إلى عزله عن التيارات الفكرية المعاصرة والأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتجددة ، وهنا يلزم أن يستعان ببرامج مكثفة يُلزم بها لسد النقص في تكوينه الثقافي ، وأن يستعان على ذلك بالتعلم الذاتي والتربية المستديمة الذاتية .

---

(٣) انظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي : ص ٢٤٣ .

ضوابط الانفتاح على الثقافات العالمية

ولا شـك أن أعظم نعمة أنعمها الله تعالى على الناس بعثة رسول الله ﷺ ونزول القرآن الكريم عليه وبيانه عليه الصلاة والسلام له بسنته ، فانتظمت الشريعة الخاتمة أمور الدين والدنيا بأكمل وأدق نظام يكفل سعادة البشر في حياتهم الدنيا وآخرتهم ؛ ولا يدرك ذلك إلاَّ المثقف المسلم الذي اعتنى بكتاب الله تعالى وتدارسه ، وبسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام وفقهها ، فالكتاب والسنة أهم مصدرين لثقافة المسلم ، فهما يحددان نظرته إلى الكون والحياة والإنسان ، ويمنحانه المقاييس الدقيقة لمعرفة الخير والشر ، وعنهما يصدر في كل أعماله وأقواله ، وبهما يحكم على الأفكار والنظريات والنظم والقوانين وكل ما ينتجه العقل الإنساني في مراحل تطوره الطويل .

والمسلم المعاصر يقف أمام مكتبة ضخمة هي نتاج العقول المفكرة في مختلف العصور والأماكن ، تضم ما خلفته الحضارات العالمية في التاريخ الغابر وما يضيفه المفكرون المعاصرون في مختلف المجالات الفكرية والعلمية ، وكثير من هذا النتاج يتعلق بالعقائد والنظم والأفكار والفلسفات . . فلو انغمر المسلم وسط هذا الركام قبل أن ينال قسطاً وافراً من ثقافة الكتاب والسنة فإن عقله يمتلىء بها ، وذهنه يزدحم ويصعب عليه تمييز الحق من الباطل ، والخير من الشر ، والسمين من الغث ،

وقد يتبنى أفكاراً باطلة ، ويعتنق عقائد فاسدة ، وتنطمس شخصيته الإسلامية وينحرف فكراً وسلوكاً عن الإسلام فيبدل نعمة الله كفراً .

ومن أجل تجنيب الأجيال الإسلامية هذه الأخطار لا بد من تمهيد الطريق أمامها ، وإنارة دربها ببناء ثقافتها الإسلامية القائمة على فقه الكتاب والسنة أولاً قبل أن تسقط في ركام الفكر الجاهلي ، ويصعب تخليصها من آثاره وبلاياه ، وقد اهتم الرسول عليه الصلاة والسلام بهذا الأمر ، ونبَّه أمته إلى خطورة ذلك ، ففي حديث جابر بن عبد الله (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة ، فقال : يا رسول الله هذه نسخة من التوراة ؛ فسكت ، فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير ، فقال أبو بكر : ثكلتك الثواكل ، ما ترىٰ ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ ، فقال : أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ؛ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل ، ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني ») [رواه الدارمي ؛ سنن ١/ ١١٥ ـ ١١٦ وأخرجه ابن حبان في صحيحه] وعن جابر أيضاً عن النبي ﷺ حين أتاه عمر ، فقال : (إنَّا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفَتَرَىٰ أن نكتب بعضها ؟ فقال : « أَمُتَهَوِّكُونَ أنتم كما تهوَّكت اليهود والنصارىٰ » ؟! يعني : أمتحيرون أنتم في الإسلام فتلجؤوا إلى الأخذ من سواه ـ ثم قال عليه الصلاة والسلام : لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حياً ما وسعه

إلاَّ اتباعي) [رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن طرق يؤيد بعضها بعضاً] .

فالنبي عليه الصلاة والسلام نهى المسلمين أول الإسلام عن الاستقاء من غير الكتاب والسنة موضحاً أنه جاءهم بالشريعة الواضحة الخالصة من الشرك والشبهات ، المصونة عن التبديل والتحريف ، التي فيها غنىً وكفاية عما سواها من العقائد والأديان ، إذ كان لا بد من وضوح الفكرة وصفاء العقيدة واستقرار المقاييس والمفاهيم ؛ فلما وعى المسلمون دينهم في صدر الإسلام ، وتفتحوا بعد ذلك على ثقافات الأمم وأديانها وعقائدها جعلوا الإسلام حكماً عليها ، فكانت دراسات الأديان المقارنة التي قام بها مؤلفو كتب الفرق ، كابن حزم ، دليلاً على استعلاء الإسلام على ما سواه .

وعندما يفي المسلمون دينهم ويفقهون كلام الله ورسوله فإن الإسلام يظل مهيمناً على ما سواه من أفكار ومعتقدات ونظم ، وحكماً عليها لأنه من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ . . . ﴾ ، (آل عمران : ٨٥) .

وأخيراً لا بد من كلمة عن علاقة التعليم الإسلامي بالتنمية في العالم الإسلامي :

إن التعليم الإسلامي يولد روح الانتماء للأمة ، ويمنع التغريب

الفكري والسلوكي ، ويقف حائلاً دون هجرة أبناء المجتمع الإسلامي - وهم عادة من المثقفين - إلى مواطن الحضارة الغربية ، وذلك لقوة إحساسهم بالانتماء إلى عالم الإسلام ، روحاً وفكراً وسلوكاً ، فلا تتبدد الطاقات ، ولا تهاجر العقول مما يحافظ على مستقبل البلاد ، ويمكنها من تنفيذ خططها التنموية .

إن أية زيارة للبلدان الأوروبية والأمريكية تطلعنا على مدى الاستنزاف الذي تعرضت له بلادنا عندما استقرت أعداد كبيرة من الخبراء والعلماء في مختلف المجالات في تلك البلدان الأجنبية رغم حاجة بلادهم الملحة إليهم ، وليس معنى ذلك أنني أتهم هؤلاء المثقفين والخبراء بضعف الولاء وعدم الانتماء ، إذ لا شك أن بعضهم اضطرته الظروف المتنوعة إلى ذلك ، ولكن الكثيرين أيضاً فضَّلوا الحياة الميسرة في الغرب على المعاناة في معركة بناء بلادهم : ولا بد من دراسة السبيل لإعادة هذه الطاقات الضخمة إلى أهلها بتوفير أجواء الرعاية والاحترام والتكريم للعلماء أدبياً ومادياً .

وكذلك فإن أهم ما يساعد على تحقيق خطط التنمية الشعور بالمسؤولية ، وحماس الناس لتنفيذها ، واستعدادهم للتضحية من أجلها ببعض الكماليات ، وربما الحاجيات والضروريات أحياناً ، وليس أقوى من التعليم الإسلامي في غرس الشعور بالمسؤولية والاستعداد للتضحية مع الاعتقاد بأن ما يقدمه الإنسان في الدنيا هو ادخار لآخرته .

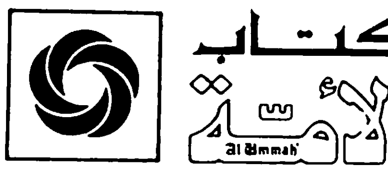
والتاريخ الإسلامي مليء بالصور المعبرة عن ذلك ، فما هو الأجر الذي أخذه أُولئك المقاتلون الشجعان عندما حفروا الخندق شمالي المدينة المنورة ؟ ولماذا تنافسوا في العمل ؟

وختامـــاً فإن الجامعات الإسلاميـــة يمكن أن تؤدي دوراً كبيراً في تحديد ملامح المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، والحفاظ على تميزها ووحدتها عن طريق التعليم ، وتجانسها الروحي والفكري والعملي ، وتكاملها الجغرافي والاقتصادي ، وإنما يمكن أن تبرز على الصعيد العالمي كتلة قوية متضامنة لتؤثر في واقع العالم المعاصر ، ولكن قوة تأثير هذه الجامعات سوف تتوقف على مدىٰ قدرتها على النهوض بالتعليم الإسلامي ليصبح مؤثراً فعالاً في بناء الفرد ، وصياغة الجماعات ، وتقديم القيادات ذات الكفاءة المؤمنة للعالم الإسلامي .

والله يقول الحق وهو يهدي إلى ســواء السبيل .

فهـــرس الموضوعـــــات

الموضــــــــوع	صفحة



هـاتف	:	٤٤٧٣٠٠
تلـكس	:	٤٩٩٩ الأمة د هـ
برقيـاً	:	الأمة الدوحة
ص . ب	:	٨٩٣ الدوحة ـ قطر

ثمن النسخة

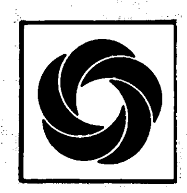
قطـر	٥ ريـالات
السـعودية	٥ ريـالات
الامـارات	٥ دراهـم
عمـان	٥٠٠ بيسة
البحـرين	٥٠٠ فلس
الكـويت	٥٠٠ فلس
العـراق	٥٠٠ فلس
اليمن الشمـالي	٥٠٠ فلس
اليمن الجنوبي	٥٠٠ فلس
الأردن	٥٠٠ فلس
سـورية	٥٠٠ قرش
لبنـان	٥٠٠ قرش
مصـر	٥٠٠ مليـم
ليبيـا	٥٠٠ درهم
السـودان	٥٠٠ مليـم
تونـس	٥٠٠ مليـم
الجـزائر	٥ دنـانير
المغـرب	٥ دراهـم

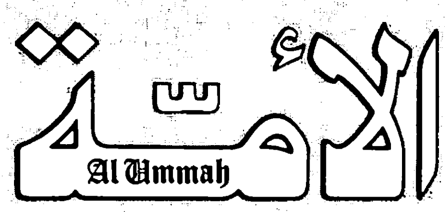
○ في باقي دول آسيا وافريقيا دولار امـريكـي ونصـف أو ما يعادله .

○ في الأمريكتين واوربا واستراليا وبـاقـي دول العـالـم دولاران امريكيان أو ما يعادلهما .

يطلب من وكلاء توزيع مجلة الأمـة

الكويت . يطلب من دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ٢٠١٤٦





اسلامية. شهرية. جامعة

- قراءة إسلامية للمشكلات الثقافية والحضارية المعاصرة.
- ترشيد الطاقات الإسلامية.
- مواكبة التطور على هدي من تعاليم الإسلام.
- تحقيقات علمية واستطلاعات مصورة
- تلتقي فيها مع كبار المفكرين والكتاب.

- مجلة المسلمين في العالم.

- مليون قارئ يتابعونها شهريًا.

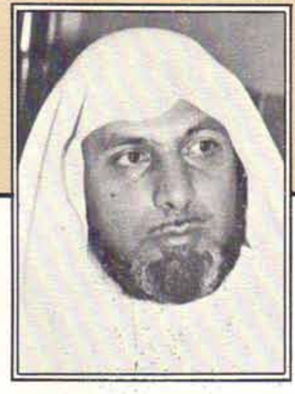
- مائة صفحة بالألوان.

- تصدر في غرة كل شهر عربي.

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

١٣٨/١٩٨٥م

مطابع الدوحة الحديثة



الدكتور أكرم ضياء العمري

- من مواليد الموصل (العراق) ١٩٤٢م.
- تخرج في جامعة بغداد ـ كلية التربية عام ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٣م.
- حصل على الماجستير من جامعة بغداد ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م والدكتوراه من جامعة عين شمس ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- عمل رئيساً للمجلس العلمي خلال الفترة (١٣٩٨ ـ ١٤٠٣هـ) ورئيساً لقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٣٩٧ ـ ١٤٠٣هـ).
- يعمل حالياً استاذاً في الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية.
- له عدة مؤلفات وتحقيقات منشورة في التاريخ الإسلامي والسنة النبوية إلى جانب بحوث ودراسات في الثقافة الإسلامية.

■ يمكن للجامعات الإسلامية ان تؤدي دوراً كبيراً في تحديد ملامح المجتمعات الإسلامية المعاصرة، والحفاظ على تميزها ووحدتها وتجانسها الروحي والفكري والعلمي، وتكاملها الجغرافي والاقتصادي، ويمكن ان تبرز على الصعيد العالمي كتلة قوية متضامنة لتؤثر في واقع العالم المعاصر ■

■ إن الثقافة الإسلامية تمر بازمة قوية تتمثل في غياب حركة النقد الواعية التي تحكم على الاعمال الفكرية والادبية، مما ادى إلى فوضى فكرية تتمثل في ضياع مقاييس التقويم، وكثرة التكرار في الأشكال والمضامين، وغلبة السطو الادبي من «الجدد» على «القدامى» ومن «المبتدئين» على «الراسخين» ■

■ إن تراكم المعرفة يحتاج إلى تخطيط بحيث يبني اللاحق على السابق، ويضيف المتاخر على المتقدم، وبذلك تتراكم المعرفة ويحصل التقدم العلمي. ومن اجل ذلك لابد من وضع استراتيجية للبحث في العلوم الإسلامية من اجل نموها ولحاقها بالفكر المعاصر من حيث تناول مشاكل الحياة المعاصرة بشمول وعمق وإبداع وابتكار، ويحتاج ذلك إلى رسم المسارات، وتحديد الأهداف، وتجنيد الوسائل ■

■ قضية التراث نفسها لم تنج من آثار الغزو الفكري فقد طرحت احياناً بمنظار غربي بحيث احتل الفلكلور الشعبي مساحة واسعة مما حوّله إلى نمط من المتعة والثقافة التي اضافها الغربيون انفسهم إلى انواع الترف الفكري الذي يعيشونه بعد ان حققوا احلامهم بالثروة والسيطرة على عالم اليوم ■

مطابع الدوحة الحديثة